رواية

ميم للنشر

إسماعيل يبرير

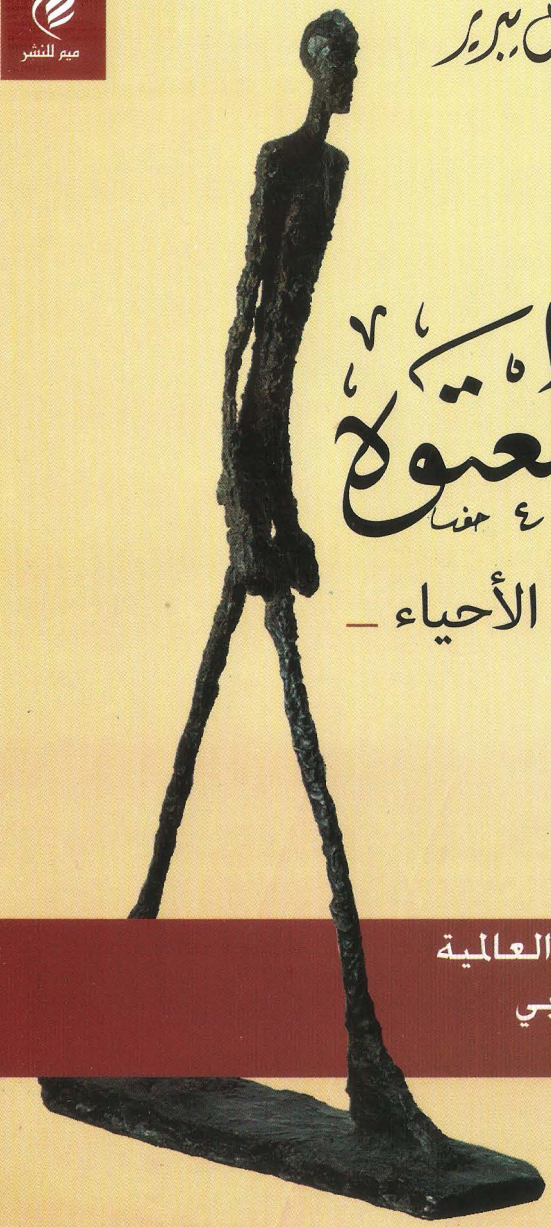

وصية المعتوه

كتاب الموتى ضد الأحياء

جائزة الطيب صالح العالمية
للإبداع الكتابي
2013

إسماعيل برير

وصية المعتوه

كتاب الموتى ضد الأحياء

رواية

ميم للنشر

وصية المعتوه، كتاب الموتى ضد الأحياء
اسم الكاتب: إسماعيل يبرير
سنة الإصدار: الطبعة الأولى سنة 2013
الخطوط: أحمد بوحفص
الغلاف: تمثال الرجل السائر للفنان البرتو جياكوميتي

الرواية الحائزة على جائزة الطيب صالح للابداع الكتابي 2013

ميم للنشر
حقوق الطبع محفوظة

دار ميم للنشر، الجزائر
E-mail : mim_edition@hotmail.fr

All rights reserved: No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الايداع القانوني: 2013-1626
ردمك: 978-9947-863-43-5

إهداء

إلى روح حفة طحشي جدّي الصّلب الذي رعتْه القسوةُ فرعى الجميع.

إلى "ميمة" خيِّرة زاهية، جدّتي التي قضت ثلاثةَ أرباعِ عمرِها في خدمة الآخرين.

صاحبُ الوصيّة يموتُ أخيرًا

-1-

عدت إلى الحيّ بعد أن جاءني مبعوث أبي يلهث، في حالة ما بين السعادة والتحفّز، بدا وكأنه يُنهي مهمّةً جليلة. أخبرني أن جدّي يُحتضر، أردت أن أتركَ العجين الذي بين يديّ وأسارعَ نحو الحيّ، لكنّ صاحب المخبزة ألحّ أن أكمل عملي، كنت أستجيب لأمره الصّارم عندما أضاف تعليقا جعلني أنتفض في وجهه، ربما قال «اللي مات الله يرحمو كمل خدمتك وروح».. غادرت المخبزة وقد غمرني إفراط دفء الغضب وحرارة المخبزة جعلتني حارقا، فجأة اصطدمت بالجوّ البارد خارجها، جريت قليلًا معتقدا أنّ ذلك سيصدّ عنّي مسار التجمّد الذي تقترحه المدينة، بعد بضعة أمتار كنت أشعر بالبرد يتغلغل إلى داخلي وأنفي يسيل، لم أعرف أيّ شعور ينبغي أن أكون مأسورَه الآن، هل ينبغي أن أتذكّر كلّ ذكريات جدّي، أم أمتنع عن ذلك إلى غاية دخول بيته؟ هناك سأشاركهم الحزن الجماعي، ذلك الحزن الذي لا يرقى كثيرا عن مستواه في الأيام العادية بمناسبة موت أحدهم، فلا لون مميز له، كما لا لون مميز للحياة هناك، ربّما ينبغي لي أن أفكّر في عملي الذي فقدته منذ قليل، لم أعد ضمن فريق العمل الليلي، وهذا – على الرغم من أثره السلبي عليّ – إلا أنه خيار يمنحني اكتشاف

النهار بعد أن ظللت غائبًا عنه طوال سنوات، أثناء حثّي للخطى نحو ديار الشّمس كنت أستعيد غربتي في حيّي، لقد انفصلت عنه وأنا في الرّابعة عشرة، فشلت في الدراسة فشلاً متكررًا ومقصودًا، لم يكن بوسع أبي معه أن يضمن لي أكثر من توجيه إلى حرفة تعيلني يوما ما، لم يكن الفشل أمرا خطيرا في حيّنا، أغلب الرفاق تتوقف أحلامهم الدّراسية باكرا، مع أننا نحلم مثل الجميع أن نصبح أطباء وطيارين ومهندسين.. كلّ الذين حلموا معي بذلك توقّفوا عن الحلم سريعا وكرّسوا حياتهم للظهور ككبار، كان المخطط يفترض العمل والسعي للزواج في أقرب الفرص، أنا تمكّنت بعد أشهر قليلة من التدرّب أن أتحكّم في كلّ ما يحيط بالفرن، العجن والتقسيم والوزن وإدخال وإخراج الصّفائح المحملة بالخبز إلى جوف الفرن النهم.. ساهمت بنيتي الجيّدة في منحي صورة عامل يشقى دون عناء، الآن أنا أتجاوز العشرين بأسبوع وساعتين، فأنا مولود قبل عشرين سنة في الرّابعة صباحا، ونحن الآن في السادسة وثلاث دقائق، شعرتُ بالتعب، لا بدّ وأن البردَ قد شلّ حركتي، بوسعي أن أدخل إلى الحيّ دون العبور على مقبرة النصارى، فقط أن ألتفّ على مقبرة المسلمين أو «الجبانة الخضراء» أو أدخل مباشرة من أحد أبوابها فأشرع في المناورة تجنبا للقبور، ولكنها طريق أسهل لن أسلكها، نزلت إلى يساري عبر شارع يلتزم الصّمت ولا يبدي أيّ موقف منذ الأبد، رغم أنه شارع يربط بين دينين ومقبرتين وموتى كُثُر، بلا لون ولا موقف، وبدا لي أقل رعبا مما سبق، وقفت حيث مقبرة النصارى التي ظلّ جدّي يحرسها طوال سنوات، لم أكن قد ولدت عندما قرّر أن يجد له عملاً فكانت المقبرة من نصيبه، هناك بدأت أحاول أن أجدَ ذكريات تُلائمُ الموقفَ الحزين الذي أنا عليه، حاولت أن أصف حُزني لي فأكون في قمته، جدّي الذي كان يعتني بهذه المقبرة لم يعد موجودا،

ولكن ما الضّير في ذلك؟ سوف يجلبون جدا آخر ليقوم بالمهمة، لكنه لن يكون جدي، هو جدٌ حفيدٍ آخر! لا يبدو أني موفقٌ في شحذ الحزن رغم أن قبور المسيحيين لفّها الحزن بكثافة كأنّها تفتقد حاديها، لماذا اعتنى جدي بتلك المقبرة أكثر من بيته، لقد كان يمسح حتى الأزهار الحجرية التي وضعوها في قفص بطول مترين وعرض متر ونصف، كانت تبهرني أحيانا لكن ليس لدرجة الاعتناء بها. قال لي جدّي مرّة: «إنهم يضعون أزهارا من الجبس والإسمنت حتى يَطول عمرُها». وأضاف وعينه تلمع بدمعة «على الأقل لن تذبل كعجوزٍ في الثمانين»، تجاوز هو الثمانين بكثير، لا أدري كم في عمره الآن، لا أدري إن كان سيعيشُ لسنوات أخرى، أم أن الخبر الذي دشّنَ به مرسولُ أبي صباحي حقيقيٌّ، وسيموت حقا؟! ربّما يكون قد مات وانتهى الأمر، هكذا يَمنح فرصة لشخصٍ آخر ليكون عجوزا وجدّا وراعيَ مقبرة النصارى.

كانت زقزقة العصافير الكثيرة تتحوّل إلى صراخ وعويل في الشّجر المحيط بالمقبرة، جدّي لم يحرس المقبرة وحدها فقد حمى طوال سنوات طويلة أجيالًا من العصافير التي لجأت إلى المقبرة، ودخل في صراع يومي مع الصيادين البُلهاء، كان يعرف أن الصّيد ليلًا لا يستهوي تلاميذَ المدارس ومشرّدي الأحياء المجاورة، فاكتفى بتطبيق كم هائل من الخُطط لمنعهم نهارا، وأصرّوا هم على مواصلة السّعي للحصول على عصفور واحد من مقبرة النصارى دون جدوى.. ربما أمكنهم ذلك الآن.

تعتبر انتصارات جدّي الكثيرة على كلّ الأجيال التي حاولت الصّيد مثل سيطرة إمبراطور على بلاد لفترة طويلة وصدّه الطامعين فيها. كانت سترته الزّرقاء هي سلاحه وجيشه المجيّش، ورقيبه وعيونه على القبور

والأشجار، كلّما غادر المقبرة انسحب في حرص كامل، وترك السترةَ معلّقةً حيث يراها الجميع، لهذا فإنهم ظلّوا يعتقدون أنه مقيمٌ في المقبرة ليلا نهارا، بينما كان يقضي قيلولةً مُريحة وآمنة في بيته بإحدى الغرف الشاغرة والباردة دون أن يشكو فيها من الوحدة.

وصلت إلى بيت جدّي، وقد اجتمع كلُّ الجيران وأهلُ الحيّ وهم ينظرون إليّ بعين الشّفقة، حاولت أن أجدَ سببًا يجعل الناس يأسون لموت رجل يكادُ ينطح القرنَ فلم أعثر عليه، لا أذكر أن ملامح جدي كانت أقل شيخوخة، منذ رأيته قبل سنوات طويلة وهو بالملامح نفسها، الأمر الوحيد الذي قد تغير هو شكل شاربه، في البداية كان أقرب إلى الفكاهة منه إلى الصرامة، كانت لطخةٌ سوداءُ تحتَ أنفه أقلَ عرضًا من منخريه، بعدها منحه حقّ التوسع فتركّزت الصّرامة على وجهه كقبر مسيحيّ.

كنت حزينا لفقدان عملي بالمخبزة أكثر من حزني على جدي الذي يحتمل أن يكون ميتا الآن، للحظة كدت أعود أدراجي إلى صاحب المخبزة وأطلب منه أن يغفر لي خطيئتي، لكنني تورطت في وسط هذا الجمع من الناس، بعضهم يمرّر يده على كتفي والبعض يواجهني بحضن صادق، والبعض يكتفي بهزّ رأسه تضامنا معي، وأنا أحيل كلّ ذلك إلى مُصيبتي في عملي، أما جدّي فقد عمل أربعة أضعاف عمري ويكفيه هذا القدر، دخلت إلى بيت جدّي الذي يقع بجوار بيتنا، كان السّائد أن أنزل درجتين لأنّ التزفيت الأخير زاد ارتفاع المنازل بما يقرب درجة، ولأني لم أزر بيت جدّي منذ وقت، فقد احتفظت ذاكرة قدمي بدرجة واحدة، ألقيت رجلي فلم تصل إلى الأرض وبدا أن نهايتي ستكون سيئة، في أقلّ من ثانية كنت ممدّدا في وسط الفناء وقد تلطّخت ملابسي بماء الغرف التي تعمل النسوة على تنقيتها، صاح الجميع تضامنا معي «المسكين لا يستطيع الوقوف»، «حليلو جدو الدايم

ربي»، «عاونوه ينوض واعطولو حاجة حلوة».. عندما صلبت طولي كان أبي يشير إليّ بالدخول إلى غرفة جدّي، وقبل أن تطأ قدمي عتبة بابها انخرط في بكاء شديد كأنه أجله إلى غاية حضوري، في تلك اللحظة أردت أن أقول له «عليك أن تتأكّد أني لن أبكي موتك بهذا الشّكل» لكنني تضامنت معه لفترة قليله، ثمّ دفعني وهو يمسك بيدي لأرى وجه جدّي، ما الفرق؟! يبدو وكأنه نائم، انتظر الجميع موقفي، دخلوا ليروا ما يفعله الحفيد المفجوع، كأن الأمر يتعلّق بمتعة بالنسبة لهم، قد تكون موضوع حديث لأيام، لكنني لم أخضع لهذه التجربة في أيّ وقت، ربّما يجب أن أبكي وأصرخ «لا يا جدي.. لن أعيش بعدك»، الأصحّ أنني سأفعل المستحيل لأظلّ بعدك أطول وقت يمكنني خارج ديار الشّمس، الأجدر بي أن أقول «متّ متأخّرا وأخذت عملي معك»، كنت أفتّش عن الكلمات المناسبة لشابّ في العشرين من عمره يفقد جدّه الذي لم يره منذ سنة رغم أنه لا يفصل بينهما سوى جدار بسُمك ثلاثين سنتيمترا.. «الله يرحمك».. ها قد خرجت من فمي عبارة مؤثرة جدا، وانطلقت بعدها همهمات من الحاضرين «آمين»، «الله يرحمو»، «عاش ما كسب مات ما خلّى»، «خلاكم رجال».

تدخّل صوت ما ليحثّ الجميع على الاستعداد «جهزوا الميت ودوروا على أحوالكم»، عندما بدأوا في المشاورات حول تجهيز الميت انصرفتُ متّجهًا إلى بيتنا، وقد التصق بذهني جسم أبي وهو يؤكّد أنه جهّز بالفعل كلّ شيء قبرهُ، كفنهُ وما يتدبّر وليمة للجيران والأقارب.

أثناء خروجي من بيت جدّي نحو بيتنا تقاطعت مع عمّتي كلثوم، دخلت إلى المنزل مثل عسكريّ لا كلام ولا تحيّة، ملفوفة في ملحفتها وبعينها الوحيدة، كانت عمّتي نموذجا حديثا عن «السيكلوب» اليوناني ذي العين الواحدة، أو كأنّها إبرة متضخّمة في ثوبها الذي أصبح رمزا لها.

ارتميت في فراش شقيقي وأنا أفكّر بقليل من المنطق في فكرة الحياة، هل كان جدّي حيا فعلا كي يموت؟ لقد أمضى عمرا بين الموتى، وهل سكان هذا الحيّ يعيشون أم يتوهمون الحياة؟ إنه فضاء من المقابر، كأنها جزيرة يُنقل إليها المعاقبون. من إذن هذا الذي عاقبنا جميعا ووضعنا في حيّ ديار الشّمس، بدل أن نسكن السّجن المحاذي له؟

واجهتني في غرفة شقيقي ثلاث رسومات غريبة، في الجدران الثلاثة للغرفة، الرّسم الأوّل لطَيْف امرأة ورجلٍ في حالة عناق ربما، أو أحدهما يخنقُ الآخر. الرّسم الثاني لرجلٍ يمسك خنجرا مزروعا بقلبه، ونقاط كأنها الدّم تتخلّص من أسر القلب، والجدار الثالث يحمل رسما مركّبا، لثلاثة وجوه خلف بعض، كأنها في صفّ نحو الجحيم، وتقرأ كل عين القفا الذي يسبقها، كأنهم امرأة ورجلان يتبعانها.. لم أعد أرى أخي منذ وقت طويل، بل إن الجميع نسي أمره، كنت أشاهده يعبر أمام المخبزة يأخذ خبزة من البائع ويخرج في أسماله دون أن يحّدث أحدا، لكنه في الفترة الأخيرة غاب تماما عن الأنظار.. وقفتُ وتأمّلت رسومَه التي تركها على الجدران الثلاثة، نقشها بتفانٍ وبدقة كأنها وصيّته لنا، ولكن أين اختفى؟

عندما دخلت أمّي وارتمت عليّ تبكي لم أستوعب ذلك، هي لم تكن ابنته وموتها يخدمها فقد نتوسّع في بيت جدي بعد أن أصبح فارغا، ولا وريث له إلا عمّتي التي لا تهتم كثيرا لأمر البيت، ثمّ إنها تودّع خدمته المضنية وطلباته المتعدّدة، تأمّلت حزنها، فوجدتُه حقيقيا، في الحقيقة إنّ أمّي كانت تبكي وضعها، أكثر ممّا تبكي وفاة جدّي، كانت تبكي ابنها الخفّاش الذي لا يلتقي الناس بسبب عمله الليلي، وابنها المعتوه الذي غادر دون أثر.

-2-

بعد أن صلينا على ميتنا- وكنت أصلي مجدّدا بعد سنوات من توقفي عن ذلك- همّ الشباب بحمل النعش والإسراع به إلى المقبرة فتدخّل أبي وطلب مني أن نحمل نعشنا ونمضي به.. حملت النعش وأنا مدفوع بجموع الماشين في الجنازة، تدريجيا لم أعد أنا الذي يحمل النعش، وأصبحت متشبثا به ثمّ تحوّلت إلى شيء لاصق بالنعش. نسيت أننا نتّجه إلى «الجبانة الخضراء» وتصوّرت أن جدّي سيُدفن إلى جوار أصدقائه الموتى المسيحيين في مقبرته، كنت أتخيّل أيّ قبر سيتّخذ هذا الذي ملك كلّ القبور، لكنّ خيالي توقّف عن ذلك بمجرّد الدّخول إلى مقبرة المسلمين، واشتدّ صياح الجميع في فريقين، أحدهما يردّد «لا إله إلا الله» والآخر «محمد رسول الله»، وفجأة توقّف الجميع لا يعرفون أين يتجهون، نطق الشّيخ «الماحي» موجّها الكلام لأبي «يا لخضر هاه ها ورّاه قبر بويك؟» وبدا وكأنّ أبي يلتحق بشقيقي فلم يجب، كرّر الشيخ الماحي السؤال فاضطر أبي إلى القذف بخطوات إلى اليمين ثمّ إلى الشمال، قبل أن يصدر جملة واضحة من شفتيه اللتين لم تكفّا عن التحرّك «يا الطالب كان القبر هنا» وأشار بأصبعه إلى عمق المقبرة حيث العشرات من القبور، وشرع الجميع وكأنهم يبحثون عن طفل مفقود، كلّ يسعى لترجيح احتماله، كان جدّي قد قرّر أن يحفر قبره بعد وفاة جدّتي منذ واحدٍ وعشرين سنةً، وأسبوع وعشر ساعات، فهي ماتت قبل مولدي بسنة كاملة بالتمام والكمال كما ظلّت تردّد أمي، ونحن الآن في الساعة الثانية زوالاً.

حفر إذن القبر وأغلقه كأن بداخله ميتا وأحضر أخي الذي كان طفلًا وأبي الذي كان كهلا وعرفا مكان القبر، وانتظر أن يموت في الأشهر الموالية،

لكنَّ رغبته بدأت تخفُت وأقبلَ على مقبرة النصارى بشغف أكبرَ من قبل، وهكذا.. نسي هو أنه سيموت، ونسي أبي أمر القبر، ونسي الجميع أخي.

بقينا على تلك الحال لساعة ونحن نبحث عن القبر المحتمل، فيؤكّد البعض أنهم شاهدوا جدي وهو يحفر ولم يكن قبره بعيدا بأكثر من عشرين متراً عن مربع الشهداء، ويقول البعض لم يكن كذلك، فقد شاهدوه وهو يحفر أمام المدخل الآخر قرب السّور، وأبي ينفي الفرضيتين ويشير ببلاهة إلى عمق المقبرة الذي تتدافع فيه القبور، ثمّ قرّر الشيخ الماحي أن نحفر قبرا جديدا ونقبر الرّجل، وكثر اللّغط فرفض نصفهم القبر الجديد ما دام الميت قد ترك وصيته وحفر قبره، وناصر البقية دعوة الإمام الماحي لتجديد القبر، أما أنا فكنت مشدوها من الصراع الفكري الذي نشب فجأة في مقبرة المسلمين، من أجل رجل خدم في مقبرة النصارى.. انسحبت من الجدل القائم وتجوّلت بين القبور أقرأ شواهدها وأحسب أعمار الموتى، وجدت أنّ جدي قد تفوّق على الجميع، عمّر بعد أن حفر قبره عقدين من الزّمن، لهذا فقد قرّرت أن أحفر قبري عندما أبلغ الستين، وسأكتفي بثمانين سنة أعمل ستين سنة منها في مخبزة محترمة، فأضمن الخبز لأهلي، سبع خبزات كلّ صباح بالإضافة إلى أجري.. فجأة حملوا نعش جدّي، اعتقدت أنهم قرّروا العودة به إلى أن يعثروا على قبره، أو لعلّه أفاق من موته وسبّهم وقرّر أن يدلّهم على القبر، عدت أرى ما الجديد فوجدتهم قد اتفقوا أخيرا على حفر قبر جديد، والساعة الآن تشير إلى الرابعة مساء، ما يعني أني تجاوزت العشرين بأسبوع واثنتي عشرة ساعة، نصف يوم يفصلني لأدخل الأسبوع الثاني بعد العشرين.

حملوا نعش جدّي واتجهوا به إلى أقصى جنوب المقبرة، حيث وجدوا قبرا محفورًا ومُهيّأ، سرعان ما جاء موكبه، دخل أصحاب الميت الجديد

بعد صلاة العصر، بينما ما يزال ميّتُنا ينتظرُ دورَه في الدفن، إنه دَفْنٌ عسير بعد عمر طويل، طلب الشيخ الماحي من القادمين مع جدي الانسحاب والتوجه إلى أقصى شمال المقبرة لإتمام مراسم الدفن العسير، واتجه الجميع في موكب صامت هذه المرة إلى أقصى الشمال، عيون الجميع على الباب الشمالي فربما يدخل موكب ميت آخر، فنعود إلى موقعنا الأول.. قرّر الإمامُ أن يحفر القبر في مكان ما، لكن حفار القبور عارضه، وشرح له الأسباب العلمية والمنهجية التي تتعارض مع ذلك فاقتنع، وانزاح به أمتارا نحو قلب المقبرة إذا افتُرض أنْ لها جسدا.

عندما تأهبّ حفّار القبور ليضرب الفأس الأولى صاح به أبي: «لن يحفر قبر أبي أحد غيري... أنا من ضيّع وصية والده أنا من ضيع قبر أبيه»، وامتلأت عيناه دمعا بينما كانت يده تمسك مقبض فأس الحفار. هذا الأخير لم يطلق فأسه وبدا أكثر إصرارا على إتمام مهمته، وأكّد لأبي أنّه لن يطلب مالا مقابل ذلك، لكن أبي أكد له أن المال لا يعيد الموتى، وأنه فقد والده ولا يفكر الآن في المال، فلو عرف أن مال الدنيا يعيد له والده لدفعه.

كدتُ أُوقفُ هذا العرض الساذج وأضرب رأسيّ المتحاورين، فأبي لا يملك مال الدنيا ولو ملكه فإنه لن يعيد له جدّي، وسيكون من الغباء أن تدفع مال الدنيا من أجل رجل كجدي قطع عمره بالطول والعرض وملّ من الحياة، وربما أكل عليه الدهر وشرب وتبوّل أيضا، في حين يشكو كلُّ سكان ديار الشمس من العوز المزمن والفقر المدقع. وحفار القبور الذي أظهر لهفًا لدفن جدّي كأنه قاتله لا يحتاج إلى قبر جدّي كي يشفى من عقده.

أصبحت السّاعةُ السادسةَ والنصفَ، هكذا قال أحدهم. وقد دخل المقبرة ثلاثة موتى جدد بالإضافة إلى جدي، دُفن الجميع وما يزال جدّي

ينتظر، حفرَ أبي القبر مقوسا، فعلّق أحدهم «هل سيدفن والده راكعا؟»، ورغم أن الجميع أرداوا التدخّل لتصحيح الوضع إلا أنه ظلّ يبكي ويصرّ أنه من سيحفر قبر والده، عندما همّوا بدفن جدّي تعّذر عليهم الأمر فتدخّل حفّار القبور يعدّل ما أفسده أبي بشراهة وهو يتمتم بما لا أسمعه.

في الساعة السابعة والنصف دفن جدي ورفع أذان العشاء فانصرف الشيخ الماحي إلى المسجد بعد أن أمضى ثلاث صلوات في المقبرة ينتظر إتمام الطقوس التي لم تتمّ بسهولة، ستغرق موت جدّي عشر دقائق، ودفنه عشر ساعات كاملة.

-3-

في شارع بيتنا وبيت جدّي كان الجميع مستعدّين لتناول «عشاء الميت» الكسكسي واللّحم، وحقّق أغلبهم مأربه عندما بدأت «قصع» الكسكسي تدخل فارغة وتخرج ممتلئة، ولعلّ جدّي أصبح نسْيًا منسيًّا منذ دُفن. قبل ذلك كان الجميع في المقبرة يتذكّرون مآثره من حكاية «اليقطينة الغريقة»، إلى موت زوجته، إلى حفره القبر إلى كبش العيد الذي لم يذبح في العيد. ولم يعد بوسعي تحمّل هذا العالم أكثر من ذلك، قرّرت أن أعود إلى البيت وأنام قليلا وفي الغد أجد لي عملا في مخبزة أخرى في حيّ آخر، أمي علّقت على موقعة المقبرة «كلّ واحد يعرف وين يدفن أمه» لماذا يتدخّلون في شأن لا يعنيهم. أرادت أن يأخذ «لخضر» دوره كاملا ويقرّر أين يدفن والده، لكن أبي المسكين لم يكن يوما بتلك القوّة، وانصاع لرأي الجماعة والجماعة المضادة، وشدّني كم كان الجميع منشغلين بالموت ساعتها، كأنه الوضع الوحيد الذي يتيح لهم التأكّد بأنهم كانوا موجودين، أتصوّر أن أقصى ما يتمناه سكان هذا الحيّ المنسي آن يموتوا، فينالهم احتفاء بأسمائهم وأعمالهم وما كانوا، لأنه لا أحد يحلم بما يكون.

في غرفة شقيقي أعدت قراءة رسوماته الخُرافية ولم أفهم منها الكثير، لكنها كانت ستبدو أكثر إثارة لو أنه رسمها على ورق، وبمناسبة الورق كان أخي مولعا بالسرّية في الفترة الأخيرة، ولم أر أيّ شيءٍ كان يكتب، أمي قالت إنه يخرج كلّ يوم ليحضر ورق تغليف اللّحم الذي يستخدمه الجزّارون، وينكبّ عليه بقلم الرّصاص. اعتقدت أن شقيقي كان يرسم، وأغرتني لوحاته الثلاث لأرى ما الذي فعله أيضا، فتّشت وعثرت سريعا

على أوراقه، كومة ثقيلة من الورق تحت سريره، قلّبت حتى تعبت ولم أعثر على شيء، لا وجوه ولا أجساد ولا خناجر، ما الذي كان يفعله بالأوارق؟ واصلت تقليبي في الورق لأعثر أخيرا على صفحات واسعة من الكتابة، كان يكتب ولم يكن يرسم، شعرت ببعض الخيبة فلم أعثر على إدهاشه في الرسم الذي كدت أسلّم به، لكنني قرأت عبارةً.. جعلتني أتوقّف عن الخيبة وأشعر بأن الأمر يتعلّق بشيء مختلف «هذا كتابي، وقد ضمّنته ما رأيت وما سترون، أنا رجل من حيّ ديار الشمس، أملك قبرا في الجبانة الخضراء، يفترض فيه أن يكون لجدّي، لكنه عصيّ على الموت لهذا فسيكون لي، أملك حكايات في مقبرتي النصارى واليهود، سأكتب الوصية دون توجيه أيّ أمر، فقط حاولوا العثور عليها وتنفيذها، أتمنى على الذي قرأ الوصية أولا أن يتحمّل مشقّة تنفيذها، لا تتعجّب كثيرا مما ورد فيها، ولا تدعوني بعد هذا الكتاب معتوهًا أو درويشًا أو مجذوبًا، ادعوني فقط باسمي وسأرضى، ألم يكن لي اسمٌ؟».

في الساعة التاسعة كنا قد فرغنا من دفن جدّي بعد عناء، وكانت موائد عشائه تصنع الحدث في الحيّ، أما أنا فقد بدأت أقرأ كتاب شقيقي بحذر، فجدّي لم يتحقّق له الكثير مما أوصى، أقرأ في سرّي لكي لا يسمع أحد وصيّة المعتوه، ولأضمن تنصّلي من أيّ عبء قد يرميه صاحب الكتاب عليّ، وتتصاعد حالة القراءة حتى أكاد أغيب.

بين المقابر الثلاث.. وبمحاذاة الوادي

1- لماذا نقتلُ؟

كان الرّائي الوحيد الذي عاش معي وعاش بعدي، فلم يره أحدٌ غيري، كان الرائي الذي يشرف عليّ ويقف شاهدا في كلّ ما مرّ بي موجودا بجانبي وبي في آن، لأجل هذا ظلّ سرّا لا يعلمه أحد، كنت أسمع صوته داخلي، ووضعت له ملامحه التي تناسبه، بدأت تلك الملامح تتغير تدريجيا إلى غاية أن أصبح الرائي آخرا، وأصبحت أنا ما أنا عليه، خلال سنوات قفزت به من شكلٍ إلى آخر حسب تقدّم سني واقترابي من الواقع والمنطق، رغم أن كلّ حياتي لا تعترف بالواقعيّ والمنطقي، وإلا لما كنت هنا أصلا، سأرتمي في أحضانكم غيرَ مبالٍ، قد يحرجني هذا الرّائي أمامكم وقد يضعف من أركان حكايتي، وربما يجعلكم تشكّون فيّ، لكني لن أمارس أيّ إقصاء على كائن سرّي كان رفيقا لي في الخيال والحقيقة، لن أكون مثل الحاج بورقيبة الذي لم يمنح حرية لبناته، ولا كخالتي التاقية التي يسلبها ابنها السعدي حريتها، ولا كجدّي الذي يعيش أوهامه كأنها الواقع، ولا كأبي الذي أغفله التّاريخ وأغفل المستقبل فلم يشهد الحاضر، سأكون مثلي أنا، ودعونا نفترض أن اسمي هو إدريس نعيم، وأني ابن حيّ يسمى ديار الشّمس

وفق اللافتة التي عُلّقت في إحدى أركانه، ويضمّه الناس إلى حيّ أكبر لا يمكن لأيّ أن يفصل بينهما هو «صون ميزون» أو مائة دار، دعونا نضفي على الحكاية بعض البهاء، فيصير حيي هذا محاطا بثلاث مقابر، مقبرة للنصارى وأخرى لليهود، وكبرى للمسلمين، وبين المقابر الثلاث حصن يُدعى «الحبس»، وهو سجن لم يحدث أن دخله أحد سكان الحيّ، لهذا فقد كنا نجهل تماما ما هو هذا الحصن الحصين الذي يجتمع أمام بابه العالي أهالي المساجين محمّلين بقُفَف الأكل والسجائر.

هل رأيتم أيّ وئام يحصل بين الموتى؟ هذا هو حوار الأديان الذي يتحدثون عنه، يحدثُ هذا الحوار على ضفاف وادي ملاح، ولن أترك لكم حرية في تخيّل هذا الوادي ومصدره وتوجهه، ولا تاريخه الحافل، وسوف أصدمكم وأعترف أنه مصدرٌ للرّوائح الكريهة أحيانا، ومأوى للأطفال المتشردين أحيانا، وطوفان يأتي على المدينة في كلّ عام ليأخذ القرابين. من أطفال وخرفان وفقراء، ولا أذكر أنّ وادي ملاح أخذ أحدا من وجهاء القوم.

يقول الرائي: أخذ وادي ملاح جدك يوما...

وأود أن أكذّبه، لكنني سألتزم الصّمت وأتركه يحكي هذه الجزئية التي أجهلها، ولعلّكم تتساءلون ما الذي يدفعني إلى تحرير الرّائي، رغم أنه لا يمكن أن يصل صوته أو كلامه إليكم؟ لم يكن ذلك بسبب صدقي الكبير، ليس لأني أشفق عليه، ولا لأنّ الحديث أثقلني، ربّما لو حصل هذا في وقت سابق لكان فيه بعض تلك الأسباب، أما الآن وأنا لا أشعر بشيء من هذا، فإني أفعل دون أيّ سبب، ربما أفعل لأني لم أعد بينكم ففي بعدي هذا لن أتحمّل نظرات الازدراء منكم، ولا تعليقاتكم القاسية، ولست مجبرا لتصوّر أحاديثكم وأحكامكم عني في غيابي، ببساطة لأني فوق الغياب.

يقول الرائي: كان جدّك رجلاً مهووسا بالمغامرة، لم يكن سباحًا. لكنَّ رغبةً ما اجتاحته للارتماء في أحضان الوادي أثناء هيجانه السّنوي، مشى على ضفته يقاوم تلك الرغبة، لكن رؤيته ليقطينة حزينةً تطفو على سطح الماء أجّج داخله تلك الرغبة، تأمّل اليقطينة وهي تتدحرج فوق الماء دون أية مقاومة، وأسرع يحثّ الخُطى نحو المكان يقربها من الضفة، فجأة ألقى بنفسه إلى الماء، غاص وغاصت اليقطينة، لكنها طلعت وحيدة وحزينة وبلا إرادة كما كانت، أما هو فقد طلع أو بدا جزء منه في جهة أخرى؟ كانت عيناه تغرق قبل جسمه، يأخذه الوادي السريع باتجاه ما، وهو يقاوم مرغما، يتخبط وقد نسي أمر اليقطينة، أخذه الماء حيث شاء، ورأى الموت ولعلّه مات، جدّك الذي كان على قدرٍ من الجذب الذي ورثته أنت، لم يفكر في نهاية لما أقدم عليه، ولم يكن بوسع أيّ سباح أن يمسك بجزء من جدّك، لهذا فقد عبث به الوادي وأخذه بعيدا عن الأبصار التي تجمّعت على الضّفتين، خرج به عن المدينة حتى أسلموا الأمر، وسارع بعضهم إلى جدّتك في بيت والدها على الضفة الأخرى من الوادي وفجعوها فبكت، ولأنّ الجذب الذي أصابكم به شيء من الحقيقة فقد نجت جدّتك ووالدك بأعجوبة عندما صعدوا أعلى قرميد البيت الذي التف عليه الماء، وحملتهم الطائرة العمودية الفرنسية بعيدا، بعيدا جدّا حيث لا تطالهم يد وادي ملاح ولا عين جدّك.

أردت أن أقاطعه وأعترف له بأنّ هذه الحكاية تصدمني، غير أني في مقام آخر، أنا أريد أن أحكي إدريس لا جدّ إدريس، لكن شوقي لمعرفة البقية منعني عن ذلك فتركته يواصل، لن أقاطعه وإن جانب الصواب.

يواصل الرائي: عاد جّدك حيّا يرزق، فكان مثل طائر خرافيٍّ بُعث من

موته، لا أحد يعرف كيف عاد ليس بيني وبين الرّائي حوار، أنا أسمعه.. فسلاحي معه السّمع، وهو يراني.. فسلاحُه معي البصر، هو الرّائي وأنا الرّؤيا، لو كان بيننا أكثر من هذا لكنت سألته كيف عاد جدي؟ لكن هذا أمر يوافق الوضع، فلو أني أسأله خرافة جدي لنسيت خرافتي وهي الأهم.

أصابني ذلك الكابوس بالرّعب، أصبحت أخشى التمدّد في فراشي، أتذكّر جيدا تفاصيله فيتراكم الرعب في اليقظة قبل النوم، عندما سقطت التفاحة هويت عليه بخنجري، كان مشهدا واحدا من بين عشرات المشاهد التي تؤرّقني، شعرت أن الكابوس الشّيطاني انتقام فقط، لكني الآن متأكّد أنّ هناك حياةً ما في مكان آخر، أُنقل إليها بفعل جذب غير مرئي كلّما غفوت، تلك الحياة هي التي أقوم فيها كلّ ليلة بقتل الرّجل دون قدرة على تجنب ذلك، كان بإمكاني أن أفيق فأبعثر الجريمة، إلا أن تلك اللحظة لم تحن أبدا.

المشهد ساديّ جدّا، التفاحة تسقط.. وأنا أهوي على الرّجل فيموت لبعض الوقت قبل أن أعيد المشهد مجدّدا، وهكذا يتكرّر الأمر، أقتله في الكابوس الواحد عشرات المرات، وبين كلّ طعنة توغل في رأسه المنسّق بشكل فاتن وأخرى، أفتح عينيّ فلا أجد غرفتي، قوّة الجذب تلك لم تكن تريد إعفائي قبل إتمام دورة العذاب.

كان نيوتن وسيمًا بشعر طويل مسدول على كتفيه، شجرة التفاح كانت أمامه وهو يتكئ على شجرة أخرى، تسقطُ التفاحة من الشجرة المقابلة، لا يحرّك ساكنا ولا يبدو عليه أنه سيكتشف أمرا جليلا، يبتسم أو بالكاد يحرّك الجهة اليسرى من شفته العليا حتى أغرقه في دمه، يرفع يديه كأنه يدعو فتأخذ لون الدّم القانيّ الذي ينبعث من رأسه كشلاّل، في بعض

كوابيسي أصحّح لأستاذ الفيزياء فكرته، يقول إنّ أيًّا منا كان سيأكل التفاحة ويمضي، وأنا أؤكد له أن نيوتن كان سيلتهم التفاحةَ ويكتشف الجاذبية، أخطأ الأستاذ عندما قال إن التفاحة سقطت على نيوتن، أخطأ لأنّ كابوسي كان يفصل بين مكان سقوط التفاحة والرّجل بأمتار.

مذ عدت إلى ديار الشّمس، لم ألتق بي، لأني مذ غادرتها سابقًا لم أكن معي؟

الآن لا أشكّ في فراغي من كلّ أسباب الصّحو أو النوم، مسنودا من كلّ الجهات بإغمائة أو انجذاب يليق بتعبي الأعظم، كأنّي قبضت بكلتا يديّ على حمامة الحكمة فوق أحد الأسطح القرميدية المنهارة، أفعلتها حقا؟ طالما كان الحمام كائنا مقدّسا بالنسبة لي، ظللتُ طوال سنوات أتوقّف مشدوها، وأنا أرى حمامة تنزل على الأرض من سمائها، اعتقدت أنّ الحمام فيه شيء من السموّ والسّمائيّة، عكْسَنا نحن البشر الذين نواصل بجدّ الهبوط والنزول رغم أننا لم نحقّق يوما الطيران بأجسادنا... لا أبكي... لا أفكّر في سرد تفاصيل «المخلوع» كاملة، أكتفي بشعور غريب، هواءٌ ما.. ظلّ يتسرّب إلى عمقي من أذني اليُسرى أو من جهتها، طالما قد أقلت كلّ الأحاسيس، أستلقي على المدى البارد. لا أتصوّر أني أغمض عينيّ، لا المكان الذي يفترض أنه يستضيفهما، لا أبصر إلا الفراغ ولعلّ الفراغ هو الذي يتأمّلني، هل أدهشهُ في وضعي هذا؟ أشعر بثقلٍ يملأ اللامكان معي، إنه الرّائي ينفُذ معي.

زال الحريق الذي في جهة العينين وارتفع جسدي قليلا من جهة الرّجلين، صرتُ أتحسّسُ ميلي ولا أجد فيه ضيقا، حولي كلّ معاني الغياب، ومهرجان من العدم يضعني في مداه... لا جسد هنا يقبع تحت غربال أمّي بلا إيقاع. كلّ الجهات تأتي من كلّ الجهات فلا أثرَ لخلافٍ بين اليمين

والشّمال أو بين الفوق والتحت، الحقيقة أن هذا اللامكان الذي أتنعّم به الآن هو ما يغريني بتأمّل ما مضى منّي طالما لا شيءَ قادم هنا. أتأمّلني وأنا خارج الإشفاق أو التأنيب، أتأمّلني دون أيّ ضمير دون أيّ حُكم، ودون تقويم أو تقييم لي، كيف كنتُ أراني مجرّدا مني ومن الرّؤيا الحميمية؟! الذّات شتات لا يسرّب بعضه إلى هنا، والأصوات الخارجية لا تصلني إلا لترتدّ فهي لا تستقرّ بوعيي المتخلّف عن دنيا الأصوات. ثمّ إني في فضاء طارد لكلّ الأحاسيس والأصوات والأفكار والأجساد.

النفاذ إلى هنا مثل الولادة، لحظة لا يختزنها الوعي ولا تعترف بها الذّاكرة وتؤكّدها التجربة.

العالم الأبيض الذي حولي يجبرني على الهدوء، لا أعثر على ما يمكن أن أحرّكه، لا أتنفّس ولست يقظا، يقينٌ ما يحدّثني أنّه خارجي -وأنا صدفة لي- يوجد أهلي، ربّما كانوا ينظرون نحوي مكتفين بالدّعاء أن أعود. صوت الرّجل الذي أتمثّله أشيب الرّأس بنظارات كلاسيكية كبيرة، ويرتدي الأبيض الدّنيوي، كان يتحدّث عن رفضي الاستجابة للعلاج والخروج.

هل أرفض الخروج فعلا أم أنّ الآخرين لا ينفذون إلى هنا؟ وهل عالمهم الحقيقة.. أم عالمي أنا ورائيّ؟ ما هناك وما هنا؟

لا أعرف إن كانت حالتي هذه تضعني في العالم أم في الفراغ؟ للمرّة الأولى أكتشف أني لم أكن أسمع جيدا طوال حياتي، الصّفاء الذي أصغي به الآن إلى الأشياء يغري بتكوّري أكثر...

إدريس... إدريس...

يقول الرائي: جدّتك أرادت أن تمنحك اسما مميزا يكون أقرب إلى الصّالحين، هي من اختار الاسم دون أن تعرف عنه الكثير. فقط أنها في رحلة ما التقت امرأة، على هوس مثلها، فحدّثتها عن كرامات سيدي إدريس الذي يجمّد الماء ويمنح الذريّة ويشفي المرضى، هكذا أصبحتَ أنت سميَّ رجلٍ خارقٍ، وأملتْ جدتك أن تكون بقدرة أولياء المنطقة، أن تصل عبقرية وجودك عبقرية «سيدي مولى الإنشاد» أو «سيدي النعاس»، لكنك اكتفيت بأن تكون من العامة، عابرا وفقط، وتصوّر لو أن بعض أهل الحيّ عرفوا عنك هذا الأمر، لكنت تحوّلت إلى درويش عقب ذلك.

لم يكن هذا الاسمُ غريبا عليّ، تطلب تعرّفي عليه ثانية أو ثانيتين بعد التساؤل، كان هذا هو اسمي الذي التصق بي منذ وعيت ولم يتغيّر إلا في رحلتي الأخيرة، عندما التقيتُ سائقَ تاكسي يحمل الاسم نفسه، ارتأيت أن أترك له الاسم لغاية الفراغ من الرّحلة، كنت أفكّر لي في اسم بديل عندما سألني ما اسمك فأربكني؟ فتّشت سريعا عن اسم مناسب لم أكن لأعثر على اسم أفضل من «السّعدي»، قال لي تبدو صغيرا على اسم كهذا، هل ما يزال هناك من يُسمّى السعدي؟

أردت أن أقول له الحقيقة وأعترف بأني لا أحبّ أن يكون لي شبيهٌ أو سَميٌّ، في الإكمالية تمنيت ترك الدراسة بسبب صبري الذي يردّد أغلب الأساتذة أنه شبيهي، عقّدني الأمر بينما كان صبري سعيدا جدا وممتنا بي، وادّعى بعد ذلك أننا إخوة، ثم سريعا وجدتني مرغما أن أكون توأمه الافتراضي، لكن القدرة على اقتراف الحقيقة صعبة. قلت له: اسمي السّعدي وكنت أتمنى أن يكون اسمي إدريس كما قدّمت نفسك، ابتسم وهو يعلن خفقات النّهاية عبر إشارة سيارته التي راحت تُكْتِكُ إيذانا بالتوقف بمحاذاة «الجبانة الخضراء» أين يرقد المسلمون.

كان وجه السّعدي يكبر في ظلام الشّارع، وكلّما توغّلت فيه أصبح البيت أبعد، أتساءل الآن لمَ قتلتُ الرّجل؟ ألم يكن بوسعي أن أستسلم له وأتركه يفعل بي ما يريد؟ في كلّ الحالات لم يكن السعدي ليقتلني، انعطف يمينا، اقترب الآن من بيته بعد أزيد من شهر على اقترافي الجريمة، يومها تركته يسبح في دمه، وبذكر دم السعدي - رحمه الله وغفر لي ما اقترفت - بحقّ أمّه التعيسة خالتي التاقية، أكّدت لي فطيمة أن قلبه ودمه باردان، لكنه كان حارقا، ألهب يديّ، فطيمة ظلّت تحبّه حتّى وهو يوزّع أذيته، ابتلعتني عتمة الشّارع، لكن وجه السّعدي كان يزرعني بتاريخ الحيّ الذي كتبناه معا، أنا والسّعدي وفطيمة.

إدريس... إدريس...

أتذكّر جلوسنا على حافة الوادي في السّادسة من العمر، كان السعدي قد دخل لتوه المدينة رفقة والدته خالتي التاقية التي تبكي كثيرا وتضحك كثيرا، وأخته زهرة التي ما يزال امتلاء جسدها يعمّر فراغات رأسي، رغم السنوات، زوّجوها صغيرة وأصبحت الآن أمّا على طريقة أمّها،كما تقول أمّي «أقلب القدرة على فمها تخرج الطفلة لامها»، عمي سليمان والده المشعوذ الهاوي الذي كنا ندعوه «مالكا الحزين» بعد أن أطلق عليه الاسم عمر النجار، كان كثير التذمّر من الأطفال، فلم يحبّ طفلاً، ولم يعطف على أيّ من أبناء الحيّ المشاغبين، لم يكن موفّقا في مشاريعه لتحقيق النجومية وسط المطلّقات والعوانس والرّاغبين في حبيباتهم والرّاغبات، فكثيرا ما سمعنا صراخ امرأة تخرّب مشروعها على يدي مالك الحزين، ظلّ يجلس حزينا ساعات طويلة لا يتكلم وربما يضع كتابا أصفرَ في حجره،

لا أعلم إن كان يصلح أن يكون عمي سليمان مالكا الحزين، فهو يتقاطع مع الطائر في شكله القصبي، وفي القصب الذي يحيط نوافذ بيته، ولعلّ الطائر الحزين سمّي بالمالك الحزين لأنه الطّائر الذي يستولي على أماكن لا تتنافس عليها الطيور، المستنقعات المعرّضة للجفاف، لهذا فهو طائر حزين ومالك تعيس، كان بوسعك أن تسمع أيّ شيء من عمي سليمان إلا صوتا عذبا، تماما كالمالك الحزين الذي يعزف أعذب الألحان على مرمى حجر من نهايته، أبي طرب لهذا اللقب وإن حاول كتم الأمر.

يقول الرائي: كنت منجذبا أنت أيضا إلى هذا الاسم، راقك وشعرت أنه تتويج واعتراف وليس نُقصاناً أو نيلاً من الرّجل، لو كان اسمه «الرّخمة» مثلا لاعتبر الأمر قدْحاً في الرّجل وقدراته، أنت والسعدي بحثتما طويلا عن طائر الرّخمة دون أن تجدا له أثرا، كان دليلكما في ذلك حوار بين سليمان المالك الحزين ووالدك لخضر نعيم، أبوك كان يتهكّم من بورقيبة بعد شجار معتاد بين مالك الحزين وبورقيبة، قال والدك «لخضر نعيم» يصف الحاج بورقيبة :«إنه ينطق منطق الرّخمة»، وسألته أنت لاحقا فقال لك أن الرّخمة طائر غريب أخرس يمضي كل حياته في صمت، ولا ينطق إلا مرة واحدة عندما يتأهّب للموت، لم تُترك الحكاية، ولم تعثر على علاقة بينها وبين الحاج بورقيبة والد فطيمة، لاحقا حدّثتك عمّتك عندما استعملت نفس المثل أن الرّخمة يقول كلمة واحدة قبل موته هي «خراء»، شعرت بالحرج لكنك قرّرت مع السعدي أن تعثرا على رخمة ترعيانها لغاية أن تقول كلمتها، ولم تعثرا عن الطائر الخرا في لغاية اليوم.

وادي ملاح يقسم المدينة إلى نصفين مثل حبة تفاح، أو كقلب يشقه سهم من تلك القلوب التي يرسمها الفتيان والفتيات على الجدران والأبواب، مدعمّة باسم الحبيبين المفترضين، وسرعان ما يسعون لإزالتها

وتنتهي القصة، كان الوادي هو السهم الذي ينطلق من مكان إلى آخر، لكنه يعبر المدينة، على حافته كنت أشرح للسعدي الجلفة ومعالمها، كان بريئا وهادئا، طفولته كثيفة لدرجة سبرتُ معها في سني المبكرة أنه سيقلع عنها فجأة، كانت عيناه خضراوين، وشعره أحمر، وبشرتُه بيضاءَ مرقّشةً، تلك صفات مختلفة عن النّموذج البشري الذي اعتدت أن آلاعبه وأعرفه، وفي ساعات قليلة أصبح أهمّ صديق عرفته في حياتي، أرافقه إلى المدرسة التي لا يعرف طريقا إليها رغم أننا نفعل ذلك كلّ يوم أربع مرات ذهابا وإيابا، ورغم أن معالم الوصول إليها جدّ واضحة ولا تحتاج إلى أيّ التفاف أو اختصار.

أعرتُه ساعتي التي كانت مؤنسا لي في اللّيالي التي غابت فيها أمّي لدى ولادتها لأخي، أبي اقتنى لي السّاعة لأنسى قليلا أمّي التي لم أتوقّف عن السّؤال عنها، أذكر كم كنتُ غريبا بالنسبة لطفل، الدّموع الحبيسة ونظرات العتاب للجميع لم تتوقّف، أرادت بنت عمّتي صليحة أن تأخذني معها في جولة، هربت وتركتها تبحث عنّي مفزوعة في الشّوارع وكنت أنظر إليها وهي تتنقّل كالمجنونة تُمسك فمها أو تضع كفّيها على وجهها وتلطم خدّيها، بعد ساعات عادت إلى البيت بوجه خال من الحياة، وكنت أنا أجلس أمام الباب وحيدا، أفكّر في الفراغ الذي خلّفته أمي. أعرف أنّ الأمر يتعلق بولادة ولعلّ الكثيرين أرادوا أن يؤوّلوا تصرّفي على أنه غيرة، الحقيقة أني شعرت بالوحدة ولكني خشيت على أمّي أكثر من شعوري بالوحدة، طفلا كنت أفكّر في حماية أبي وأمي، وكبر معي الأمر إلى أن صرت معقّدا بحمايتهما من خطر أتوهّمه، في النهاية لم أتمكن من حماية أحد ولا حتى...

كنت أتأمّل النقطتين الفاصلتين بين الدّقائق والسّاعات وهي تظهر وتختفي معلنة عن موت الثواني، أنيرُ ضوءَها الفاتن وأفكّر في وجه أمّي، أما أبي فلم يكن يأتي باكرا إلى البيت، يمضي وقته بين العمل وزياراته المتكرّرة لأمّي، أخي ولد ضعيفا لكنّه الآن مارد، أما أنا فولدت قويا لكنّ الحياة لم تحتف بقوّتي كثيرا، عندما يستلقي إلى جانبي كان يسهل عليّ النوم.

لم يُعد السّعدي ساعتي تلك ولم يفسر لي الأمر إلى غاية موته، أقصد إلى غاية مقتله على يدي.

أمشي في الشّارع وصوته الطّفولي وهو يكذب ويتحجّج كلّ يوم بحجة لينيسني أمر السّاعة يتردّد في أذني، أمطّ الخطى مسرعا نحو بيت السّعدي، الأحداث تتسارع، تشاجرنا وكُسرت سنه لدى سقوطه على الأرض، بعدها شعرت أنّ السّاعة بالسّن ظلم، وأصبغ عليّ فضلا عندما تكتّم عن الشجار.

في حيّ ديار الشمس البارد جدّا لا يهتم الأولياء بأسنان أبنائهم، لهذا فإنّ والده مالك الحزين بدا سعيدا وهو يفتح فم ابنه في كلّ مرة ويعيد غلقه ليعلّق «هكذا يا واحد الشيطان طحت وطيحت سنتك؟»، أما التاقية فقد أمسكت فمها متحسّرة دون أن تفكّر في ضرورة عمل شيء ما، كانوا يؤمنون أنّه القدر من أخذ سنه وليس إدريس، لم أصل بعد إلى باب البيت فالتهمني وجه القتيل، ووجه أمّه ووجه القاتل.

أعود مسرعا، أهرول، أجري بسرعة ويمتد الشّارع كأنّه أبدٌ، أجري وأجري وأجري... كأني لا أصل. تعرّقت وخفت واختنقت، أردت أن أتقيأ في نهاية الشّارع وأن أجلس على الأرض، أن أبكي وأن أصرخ أن أسلّمني إلى الأمن، لقد قتلت السّعدي منذ شهر وأخفيت القاتل عند عمتي، لقد

تركت خالتي التاقية وحيدة، ولعلّها ماتت كمدًا وحُزنا على ابنها، ركعت عند نهاية الشارع، أبصق الأرض.

السّماء تضيء، والرّعد يفجّر طاقته بصدري، وظلّي يركع في الاتجاه المعاكس، كأنّي سأغتسل أرفع رأسي إلى السّماء، أفكّر في ملامحي التي ستمّحي تماما، وفي وجه بلا ملامح يتجوّل بريئا، على حافّة الرّصيف تشكّلت بركة صغيرة من الماء غرقت فيها، تذكّرت الوادي الذي جلسنا إليه، كنت والسّعدي طفليّ الوادي والمقابر، وجهه الطّفل كبر في البركة، عندما دخلنا إلى الكتّاب معا في تلك الطّفولة الشّقية والممتعة، أرادنا «أنعم سيدي» أن نجلس متفرّقين بعد أن أكثرنا من الحكايات في أوّل حصّة، كنت أكتشف أني نسيت الكثيرَ من الأمور عندما نفترق، وكان هو أيضا يفعل الشّيء ذاته، مع مرور الأيّام تحوّل الكتّاب إلى عقاب قاس بالنسبة لكلينا، ودون ذكر إخفاقنا المشترك في تخطّي الحزب الأول، ونظرات باقي الأطفال و«القناديز» إلينا، فإنّ العقوبات المتتالية من لدن سي المصّفى كانت أكثر من قاهرة، لم يمضِ أسبوعٌ دونَ أن أحصلَ على فلقتين أو ثلاث، والأمر نفسه بالنسبة للسعدي الذي خرج عن واجب التحفّظ عندما سبّ سي المصّفى فأبرحه ضربا قبل أن يرميه إلى الشّارع.. انتهى السعدي من الكتّاب وبقيت أنا ليومين، في اليوم الثالث من حادثة طرده وقف أمام النافذة يحدّثني في أمر بينما كانت أصوات «الطلبة والقناديز والذراري» تتداخل في مختلف الآيات والسّور، استغرقنا في الحديث بالإشارات وبكلمات تُقرأ بشفاه بارزة، رمى سي المصّفى «عصا الجريد» التي أصابت رجليّ معا في أكبر أصابعهما، تألّمت كما لم أتألم في يوم سابق، كتمتُ صرخةً تأتي على سقف الكتّاب لو أطلقتُها وحبست بكائي، في ثوان

متتالية كان يتحسّس ألمي ويصرخ بوجه المعلم «يا أنعم سيدي والله غير نكسرلك راسك كي نكبر يا الحقار»، أما أنا فقد أعدت له عصاه رميا لكنّها لم تصبه وخرجت مسرعا بعد أن التقطت نعليّ.

كبرنا وكبر حقد شيخ الكتّاب علينا، لكنه في لحظة ما خشي بطش السّعدي، بعد سنوات أصبح يبادله التحية بينما يعبس كلّما رآني، ولم أكن أحتاج أن أخفّف من آثامي فبادلته العبوس نفسه، ولعلّه تلا القرآن كلما رأى وجهي باهت الملامح، كان المطر يمنحني دموعًا فبكيت، تصوّرت أنّ كلّ ذلك الماء دمعي.. ملامحي وشهيقي الجافين، كانا مبلّلين هذه المرّة.

«السعدي!» صوت خلفي ينادي على القتيل، وأنا بلا حيلة ولا ملامح، لعلّ ظلّي الآن أسير الصّوت، لم أهرب ولم أبق، البرْكةُ الصّغيرة زادت صغرا ولم تعد كفيلة بإغراقي، وللمرّة الأولى أفشل في تأمّلي على صفحة عاكسة في غياب مرآتيْ التي تركتها أجزاء تحت سريري، التفتُّ.. كان إدريس يقف بسيجارة لا يطفئُها المطر، كنت أقف بوزري وبلا ملامح... مطفأ منذ البداية، ركبت معه السّيارة، سألني إن كنت أعاني من أيّ أتعاب صحية، فاقترحت عليه الصّرع الذي يصيبني، واقترح عليّ أن أعالج تقليديا وأن أحاول بالرقية.

قلت له: أنا أدعى إدريس، قال لي: أنا أدعى السعدي.

التصقتُ بدفء السيارة، مقاعدها الجلدية كانت تحتضنني، ودخانه أغراني بإشعال سيجارة، ولم أكن أستطيع أن أمدّ يدي المبتلة إلى جيبي الدّاخلي حيث أخبئ السّجائر، فمنذ عاد السّعدي رحمه الله وغفر لي ذنبي، لم أعد آمَنُهُ على السّجائر، فهو يدخّن بشراهة ولا يبالي إن كنت سأحصل على سجائر الليّلة أم أني سأبيت أضرب كفّا بكفّ وأشتمه؟ في

حيّنا ذاك تصبح السجائر مثل فكرة عسيرة قلّما يصل إليها أمثالي. أعطاني السّعدي سيجارة، بينما كانت مسّاحات المطر تنسجمُ مع موسيقى الإذاعة في دخان السّجائر، بالإضافة إلى رائحته، وجوهٌ عديدةٌ.. كنت أنا والسّعدي قبل أن أقتله نتأمّل نفثات الدّخان ونعطي لكلّ شكل ملامح شخص ما، سي المصفي، أبي، أبيه، خالتي التاقية، وأمي، النخلة والحاج بورقيبة، الجميع كانوا أبطالا من دخان، إلا أني كنت أسوق أبطالي المجهولين بالنسبة له، ولعلّه كان يفعل الشيءَ نفسَه، نفثتُ بهدوءٍ وأدب جم أخته زهرة غير مرّة، وفطيمة مرات كثيرةً، كان يتوجّس مني فيبدو وكأنه تعرّف على فطيمة لهذا فقد كنتُ أسرع في بعث دخان أكثر زرقة لينسفَ حلم فطيمة.

هذه المرّة لا وجه إلا وجه قتيلي وقاتلي، هذه المرّة لا أحد يخرج من السّجائر ويكبر إلا السّعدي، هذه المرّة لا يتسرّب إلى صدري الدّخان بل روحه تخنق روحي.

سافر السعدي إلى ليبيا وأقام فيها لسنوات، كنا صغارا وفعل ما يفعله الشّباب عادة، إمّا السّفر أو الانكفاء في محيط محدود الخيارات، كان الوطن افتراضا هو الجزائر، وواقعا هو الحيّ، كل ما بعد الحيّ من الضفّة الأخرى لوادي ملاح وإلى غاية القطب المتجمّد هي عوالم اغتراب، قبل أن يغادر قفزت ملامحه من الطّفولة إلى التأهّب، فلا هي ملامح رجل ولا هي ملامح طفل، قبل المغادرة ذكّرني أن صبري شبيهي الذي أصبح لا يشبهني قد تحوّل إلى سارقٍ مُحترف وعليّ أن أحترز من دسائسه، بدا وكأنه لا يخشى على شيء سواي، لكنه ألقى نظرة مليئة بالرّموز نحو بيت الحاج بورقيبة، نحو بيت فطيمة.

بعد سنوات عاد السعدي فقيرا، لم يجمع الثروة التي أوهم بها التاقية وزهرة، والده سليمان انتهى مُقْعدًا قبل أن يموت نصف مالك بكل الحزن والألم الموجودَيْن على الأرض في غيابه، لم يكن فرحا قادما بالنسبة للحيّ، فقد تحوّل إلى شاب عنيف النظرات، يمضغ أسنانه غضبا من الجميع دون سبب، أما أنا فلم أعد من أولوياته وتحوّل إلى مصدر ضيق لي، أصبح عبئا وأنا الذي انتظرت أن ألتقيه بعد فراغي من كلّ مشاهد الفشل، فإذا بي ألتقي تمثالا آخر للفشل، الفرق الوحيد أنه فاشل بالإيجاب، يفتخر بنفسه ويعتدّ بخطاه العشوائية، أما أنا ففاشل مُحبَط، وغريبٌ عن المدينة والحيّ والبيت، وعن غرفتي وجسدي أيضا، لم تبقَ إلا المرآة التي تحتفي بي في الحزن والإحباط، لكنها في وطني وأنا في المنفى.

يقول الرّائي: كنت تفتّشُ عن ملامحك الحقيقية في المرآة، طالما اعتقدت أن قلّة وسامتك تلك غير مبررة فأبوك وأمك وأخوك وجدّك وعمّتك وكلّ أهلك أكثر وسامةً منك، كنت تسعى لفكّ لغز قلة حظك مقارنة بالجميع، ورغم أنّ فطيمة كانت تنظر للكثيرين وتعلّق على إخفاقاتهم الجمالية في حضورك، وتبادلها أنت الابتسامة، إلا أنك لم تنس أنك من حزبهم، لهذا فقد سألتها مرّة في السرّ «وماذا عني؟»، وأجابتك في العلن «أنت والسعدي زينين مش كيما وجوه الصاشي».. شعرت بدفع كبير يومها، وضعتك طفلتُك في المقام الجمالي ذاته، مع السعدي الوسيم، تصوّرت أن وجهَك الطويل تقلّص قليلا، وأنفكَ انسجمَ تمامًا مع فمك، الحقيقة أن عينيك جميلتان ولا تحتاجان إلى إعادة نظر، وهما الجهة التي كانت تنظر إليها فطيمة لتكتشف أنك جميل، وهو ما تعذر عليك لأنك بدّرتهما في النظر إليك من خلال المرآة، فكانا وسيلةً ووجهُك الغاية.

ليت السعدي لم يعد، ليته مات على يد معتوهٍ آخر وحفظ مكانته في قلبي، ليته ترك لي فرصةَ أنْ أعيدَ تجديد حياتي، وليتني قتلتُ شخصًا آخرَ غيره، كنتُ أتأكد أنّ الفاصلَ بين أن تقتلَ وأن تعانقَ ثانيةٌ أو أقلُ من الثانية.

تصوّرت وجه أمّي الحزين بطبيعته وهي تتأمّلني، ورغم أنه غير متاح لي في انسحاقي اللذيذ هذا أن أرى ذلك، إلا أني أعرف تماماً ما يجري، تماما كرجل خَبُرَ الحياةَ في الظلام الدّامس، ليس بسبب العمى وإنما بسبب عدم اكتشاف المصباح أصلاً.

إدريس...إدريس...

هذا هو اسمي يأتي من العالم الذي يحتجز النّاس، أما البقية فأسماؤهم لا تأتي، أصواتهم بلى، أواصل المضيّ. الأمر أشبه بامتداد بلا طعم ولا لون ولا حدود، وأنا رغم تجربتي بين العالمين لا أشعر أني مبعثر بينهما.. عالمان لا يعترفان باللّون.

كنتُ أرعى سؤالاً ضخماً: «لماذا نقتلُ؟»

2- الكباشُ النموذجية

فشل المشط في تحديد اتجاه لشعري الصّوفيّ، فأنا لم أزر الحلاق منذ تسعة أشهر، لا بدّ وأنّها فترة طويلة جدّا بالنسبة لشخص لا يملك سببا لترك شعره مطلقا، عندما دخلت إلى العيد الحلاق.. رحب بي، الزّبائن الذين أغرقوا في الاستمتاع بأغاني خليفي أحمد، أبدوا السّعادة نفسها التي لدى العيد، كأنهم في مملكته يدينون بالولاء له وهو الآمر الناهي، منطقهم «لا تخالف الحلاق فقد يعبث بشعرك»، بالنسبة لي لا يمكن للعيد أن يغدر بي، لقد نشأنا في الحيّ معا، ورغم أنّ ذكرياتنا المشتركة قليلة إلا أنه كان جارا محترما على دين والده وجدّه، وقد حظي العيد بكثير من الاحترام في الحيّ واستطاع بفضل اجتهاده في حلق شعور الكبار والصّغار أن يجمع ما يكفي لزواجه، ثمّ ها هو أبّ لبنتين لا تتوقّفان عن الدّخول إلى صالونه الفقير حافيتين في كلّ لحظة بينما يطردهما دون أن يستوقفه مظهرهما الرّث، مخاطهما المتصلّب وألبستهما البالية وشعرهما الأشقر الفوضوي التوجه، بدا كلّ ذلك ساحرا بالنسبة لي، عجبت كيف لم يتدخّل مقصّه ليعالج تشنّج شعر البنتين، لو أنّ أمي كانت هناك لقالت «جزار وعشاه لفت»، كنت من سنّ العيد لكنّه كان على الدّوام يبدو أكبر منا، وما يزال بفضل طوله وملامحه يكبرنا جميعا ببعض السّنين.

فجأة تغيّرت ملامحهم عندما حرّرت شعري من قبعته، الحقيقة أني تفاجأت أيضا وأنا أشاهد كيف انتفض شعر رأسي على مرآة المحل. كانت أمّي لتقول «لا تضحك على خوك المومن لا يصرالك كي هو» أو «اللي يضحك ربي يضحك بيه»، ضحّك بي ربي وخدعتني مرآتي، هدّها الزّمن وأسلمت

الأمر، وظهرت عليها فراغات ونقاط سوداء، أصبحت تجعل وجهي قليل الاكتمال أكثر نقصا، كثيرا ما حوّلتني إلى قرصان بعين واحدة، لم يكن لرفيقتي أن تخدعني تسعة أشهر لولا الكوابيس الكثيرة التي قرأتها على وجهي، زدت أكثر من عشرين سنتيمترا ولعلّ وزني سيخفّ رطلا وأنا أغادر الحلاّق، أحدهم كان وقحا لدرجة أنه سأل إن كان الحلاق يدين لي بمال منعني عنه وأطلق العنان لضحكة أحدّ من شفرة العيد التي ترقص في يده، أراد حلاقي أن يحتوي حماقته فسألني «لحية ولا شعر؟» كنت أهتم بمسح وجهي يوميا، لكنني تركت للّحية حريتها منذ وقت، والواضح أنه سيخوض معركة شاقة في هذه الأدغال، انفجر العيد في وجه صاحب التعليق الذي لم يتوقّف عن الضحك والتغامز «أيا طبق برا سامحنا سي محمد»، لم يكن ردّ فعل الشاب المزهو باقتداره على الضحك واضحا، انتصب وأبدى الكثير من التذمّر قبل أن يكرّر العيد العبارة نفسها عليه وينفجر هو ضاحكا بينما يحرّك رأسه ليستفزني، أنا لم أبال بوقاحته ولا بخفّة روحه.

كان العيد يتحدّث عن رسالة السّعدي التي أصبحت حديث الحيّ، أنا أعجبت بعبارة «رسالة السعدي»، تصوّرت لو أننا نضيف إليها بعض التجميل كأن تصبح «رسالة السعدي في حقيقة المهدي» أو «رسالة السعدي الكبيرة في الفصل بين مادونا وشكيرا»، أردت أن أبتسم على الأقل لأجاري هذه الفكرة، لكنّني انتبهت إلى أن الخبر أهمّ من فكاهتي ومسرحتي للأشياء، قالوا بأنه قرّر العودة إلى الجزائر، ولكن هل نحن حقا في الجزائر؟ البقية من جمهور صّالون العيد انخرطت في تأويلات لا تنتهي، البعض أكّد أنّه كان إرهابيا وأنه جمع ثروة طائلة وسيحقّق عبرها كلّ ما يحلم به بعد أن سوّى وضعيته تجاه الحكومة، البعض قال إنّه جمع ثروته من العمل في ليبيا

كما فعل بورقيبة، وآخرون أكّدوا زواجه من ليبية منحته وضعا جديدا كما فعل صالح بطاطا، حكاية إقامته في إيطاليا التي جاءت منها الرسالة، وهروبه من ليبيا بعد أن قتل ربّ عمله أخذت نصيبها، ليكرّر نموذج عيسى القاوري، أنا ابتعدت عن الجميع وسافرت إلى تفاصيله.

يقول الرائي: أنت تمنيتَ أن يكونَ كلُّ ذلكَ هذياناً، تمنّيتَ أن يضيعَ صديقُك وتنتهي حكايته إلى الأبد. أردته أن يستقرّ في لائحة الانتظار لترسّم له حكاية، أردت له أرضا أخرى وسماء أخرى، شمسا غير التي تصارع لتعلن النهار بديار الشمس، أردت أن يكون ذكرى، ويترك لك الحاضر لتواصل.

كنا أنا والسّعدي وفطيمة في السّن نفسها، درسنا معا ونشأنا معا، ثلاثتنا اقترنّا ببعض، فلا يأتي ذكر واحد منا إلا تبعه الاثنان، في الخير والشّر، في السرّاء والضرّاء، وغالبا ما كان الغداء مشتركا بيننا، فإمّا عند خالتي التاقية، التي لا تتوقّف شكواها من شظف العيش وتردّد ما تكون أمّي قد قالته غير مرة: «العيش قليل وفيه الذبان»، لم أكن أعرف إن كانت تقصدنا نحن أم لا، بالذّباب الذي يغمّس عيشها القليل، ولكنّي لم أعبأ بها لا أنا ولا فطيمة ولا ابنها السّعدي الذي يتحوّل سريعا إلى رجل عندما يدخل إلى بيتهم، وتفرط هي في طاعته. أمّا خالتي عيشوش والدة فطيمة فلم تكن تملّ من امتداحنا لأننا ذكور، وتبدي تعفّفها وضيقها من البنات وتجمعهنّ جمعا لا يليق إلا بها عندما تكرّر «أف من البونت» تقصد البنات، لهذا فقد كنّا ننال عندها كلّ خير لولا صيحات الحاج بورقيبة الذي لا يطيق وجودنا ولا لعبنا أو تجوّلنا مع ابنته، اللّيل كان فاصلتنا الصّغرى نحن الحركات الثلاث وهو السّكون. لعلّ فتاتنا كانت

تدخل قبلنا ونواصل أنا والسّعدي تسكّعنا قليلا قبل أن يتحوّل الحيّ إلى نداءات عنا، وكلّ من يلقانا يستعجل دخولنا «اجري يا طفل بيّك يحوس عليك». الأمر لنا معا، فنعجل بالدّخول ولا نعلم إن كان أحد أبوينا قد فعل حقا، أم أنّ تكرار الأمر جعل جميع كبار الحيّ يبادرون بتلك العبارة؟ مع تطوّرنا السّريع صرنا لا نبالي بأحد. ونواصل تدحرجنا عبر شوارع الحيّ دون مبالاة، وربما ذهبنا غير مرّة إلى «مقام الرقاديات» في طرف المدينة الغربي، أين كانت تسكن عمّة السّعدي، أو إلى «القرابة» في الطرف الشّمالي أين تسكن عمّتي كلثوم. كانت فطيمة واحدة من بين سبعة إخوة، ذكريْن وخمسِ بناتٍ حسناوات، غضّات، ممتلئات، وكان جمالهُن حديثَ الجميع ووجوههن حلم الجميع، لولا أنّها سريعا ما تُحجب عن الأنظار، الحاج بورقيبة كان يشعر بالعار لأنّه أبٌ لهؤلاء البنات، مرّة رأيت سعادته عندما التقى بنت عيسى القاوري، حسبتُه - في سني تلك - يُشفقُ عليها لأنها ولدت مشوّهة الوجه ومعاقة، الآن.. في هذه الأبديّة أعرف أنّه رأى فيها خيرا على والدها، لأنه لن يضطر إلى تنقيبها يوما.. تزوّجت فتيات بورقيبة جميعهن قبل قانون الأسرة، لهذا فإنهن لم يعشن مراهقة ولا حبّا واكتفين بالزّواج من رجال أشداء، اختارهم الحاج بورقيبة بعناية ليكونوا على مذهبه في الغلاظة والعنف، أمّا أمّي فغالبا ما تكون الملجأ الأهم بسب اعتنائها الكبير بخدمتنا، أنا كنت الأكبر في البيت لهذا فإنها كانت تحتفي بي كثيرا، لم نكن ننتظر أن نفترق، ورغم إدراكنا أنا والسّعدي، أنّ التي بيننا فتاة، وسعي كلّ منا إلى الظهور بشكل أفضل أمامها، إلا أن الأمر ظلّ سرّا بيننا، فلا أحدَ يعترف للآخر بأنه يريد إزاحته تماما، معركة صامتة، كنت أحبّ أن أرى فطيمة تجري فيتحرّك شعرها الحريري، وكلّما

هبّت ريح استدرتُ سريعا نحوها لأرى كيف تعبث الرّيح بخصلاته، لم أكن أعرف معنى فتاة، لهذا ظلّت دهشتي قائمة كلّما التقيت فطيمة، أخبرني السّعدي لأنّه يملك أختا عن الثقوب الثلاثة التي توجد بالفرج؟ وكدتُ أطير فرحا لأن ابن عمي - لاحقا - وفي زيارة إلى قصرهم أكّد لي النظرية السعديّة، إذن فهذا حقيقي، ثقبة للبول وأخرى للجنس وثالثة للولادة، غير أنّ معلومات ابن عمي لا تؤكّد أنّ الثّقب الثالث للولادة، فالولادة تتمّ من فتحة الشّرج؟ دوّختني تلك الأسئلة ولم تفلح تفسيرات أمّي ضعيفة الحجّة في إبعادي عن ذلك السؤل الوجودي، طالما تدور حول خروجي من السرّة في البداية، ثمّ عن الجراحة التي تجريها النساء لإخراج الجنين.

قرصني «الطوندوز» في رقبتي فأعادني العيد إلى أرض ليس عليها السعدي ولا فطيمة، كان الجميع موغلين في الحديث عن عيد الكبش الذي سيعود إلى المدينة مع عودة السّعدي، أحدهم راح ينظّر للكباش التي لا تتعايش وضرورة وجود كبش واحد بين النّعجات ليتمّ مهمته، الآخر تحدّث عن التيس الذي يملك قدرات أهمّ من الكبش، لكنّه لسوء حظّه التاريخي يعاني التهميش في مجتمع الماشية؟ نظرت في وجوه الجميع فلم أرَ كبشاً ولا تيساً، جميعهم أقرب إلى النعاج بسلبيتهم، كان الجالسون من أبناء الحيّ وقد عرفتهم لسنوات، ولم يتغير منهم شيء.. الغريب أنّ أصدقاءهم من كلّ الأجيال، وأنّ لهم قدرةً رهيبةً في الإصغاء لحكايات الجميع والتأثّر بها، وفي الحديث عن الجميع ونشر أخبارهم، الجميع أصدقاء للجميع، والكلّ مستودعُ سرِّ الكلّ، كان يكفي أن أقول شيئا في محل العيد ليتحول إلى واقع.

كانت الجلفة مدينة تحتفي بالكبش، وضعت له تمثالا في صدرها، لكنه سقط منذ سنوات قليلة مع التماثيل الكثيرة التي سقطت تباعا، يقول

أستاذ التاريخ الذي درّسني منذ سنوات أنّ الجلفاوي الذي سبق التاريخ كان يربّي الكباش، ويقول أيضا إن حقبةً مرّت على الجلفة، لم يكن بوسع الرّجل فيها الخروج دون كبش، لكنه لم يقل الخروج من أين وإلى أين؟ هل كانت في الجلفة مدن وشوارع قبل التاريخ؟ أم كهوف ومغارات ودور شمس باردة؟ وهل كنتُ والسّعديُ كبشين، يجب أن يبقى أحدنا ويهاجر الآخر ليجد نعجته؟ كبشٌ ثالثٌ نطحنا معاً واستحوذ على فطيمة، شعرت أني في وضع مشابه للكبش وحيد القرن، هذا الكبش الذي سأحكي لكم سريعا مأساته هو أتعسُ كبش على الأرض، أطلق عليه جدّي اسم «بوقرون» ورأف به فعاش في بيته المجاور لبيتنا ثلاث سنوات بقرن واحد، والحقيقة أن بوقرون كان بقرنين طويلين، أكملا دورتين وخما في الدورة الثالثة، ولبؤسه كان ذلك أول وآخر كبش يقتنيه جدّي لعيد الأضحى، وقد انتابه الكثير من الفخر عندما اكتشف أنّه فحل حقيقي ممتلئ ومنتصب وبقرنين مميزين، منحنا ذلك الكبش حق تسيّد المشهد في الحيّ لأيّام، قبل أنّ تحلّ الكارثة العظمى، التصق بوقرون بأحد قرنيه في إطار الباب الحديدي لبيتنا ولم يمنحني الوقت الكافي لأساعده عندما راح ينتفض، كانت تلك الحالة من الهيجان غريبة وغير معتادة، لم أرَ يوما كبشا يضطرب بتلك الطريقة التي تشبه غضب الحاج بورقيبة، بعد بضع ثوانٍ كان بوقرون يدمي ويدور بقرن واحد، بكيت لما جرى له كما لم أكن لأفعل لو تمّ ذبحه، وتأثّر جدّي كثيرا، وأراد أبي أن نذبحه قبل العيد ونصدّق من لحمه غير أنّ جدّي منعه، وهكذا تحوّل بوقرون من نجم بين الكباش إلى معاق، وتحوّلت أنا إلى مذنب، فتعمّق شعوري بالنقص، وقد كنت مستاءً منذ أيام عندما علّق أحدهم حين التقاني رفقة جدّي بلفظ «ربي يشفيه إن شاء الله» ولم يبد

جدّي استغرابا بل هزّ رأسه وكأني مصاب بعاهة ما، أو مريض أو معتوه، لا أفهم مِمَّ يجب أن أشفى؟ تلك فجيعتنا في بوقرون الذي ذبح قبل موته بدقائق، ووُزّع على سكان الحي ليأكلوه خائبا.

تزوّجت فطيمة ونحن نستعدُّ لتوديع الصّف الثامن، صحيح أن صدرها انطلق مسرعا إلى الأمام وأدهشنا، وأنها أصبحت أطول منا معا، إلا أنّ أمّها خالتي عيشوش اجتهدت في إخفاء ثدييها لكي لا يتذكّر الحاج بورقيبة أنّ فتاته الأخيرة تجرح كرامته بجمالها، وحاولت أن تبعدها عن أنظاره قدر الإمكان، أرادته أن ينساها وخشيت عليها من قدر أخواتها اللاّئي تزوّجن من كباش فارعة، ولكن دون جدوى، السّعدي بكى يوم زواجها من على سطح بيتهم، أما أنا فكنت أتأمّل الحاج بورقيبة وهو يطلق البارود من بندقيته فضيّة العقب وينفض أكتافه مثل ديك وحيد في الخمّ، لم تكن معي دموع في ذلك الوقت لهذا اكتفيت بالحسرة والضيق الذي لفّ صدري، كانت فطيمة الأولى في القسم، تفوّقت في الرياضيات ولم أكن لأفهم شروحاتها المتكرّرة لي، ولا دخل الحروف في لغة الأرقام؟ واستطاعت أن تتكلّم الفرنسية بسهولة وهي صاحبة الفضل عليّ في علاماتي المتوسطة في الانجليزية.

البطولة الانجليزية كانت حديث الصّالون الهزيل، تحوّل الشباب بسرعة من الكباش إلى البطولة الانجليزية، وأنا هنا بالذات لا أفقه شيئا، تشيلسي ومانشستر يونايتد وليفربول... كل تلك الأسماء تبدو مألوفة، لكنّها غريبة في الوقت نفسه.. عندما نظرت أمامي في مرآة العيد كنت أشعر أني بدأت أميل إلى اللّون الأبيض، شعرت أن أذنيَّ اتسعتا بل أصابني الحرج من الأمر، وبأن جبهتي جسرن وتمنّيت لو أني راقبت ما يفعله العيد برأسي.

خرجت من الصّالون أخفّ وتظاهرت بعدم المبالاة، الحقيقة أنّ الشّعر الذي فقدته كان أقرب إلى العضو الذي تسرّبت إليه عروق وجرت فيها دماء، أردت أن أطلب من العيد حلاقي المفضل أن يجمع لي شعري لأضعه في صندوق زجاجيّ، وددت لو فعلتها وعلّقته في غرفتي، لكن حرجا ما أصابني وأعين الشباب مسمّرة فيّ وهم يهنئوني على حلاقة عسيرة، أنا كنت أشعر أنه بترٌ وأنه عليّ التظاهر بالقوّة أمام ما حصل، وكان حريّاً بالجميع أن يصبّروني لا أن يسعدوا لبترِ أصابعي.

سيبقى ذلك الشّعر عالقا في ذهني لأنه خلاصة أشهر طويلة عهدته فيها، كان يحرمني من الخروج أحيانا إذا انتفض، ولم يكن الصّباح يسيرا فأوّل ما أقوم به بعد السّيجارة والقهوة هو البدء في ترطيبه وتليينه، أغسله مرّة أو مرتين حسب الظّروف، أمشطه ويدي تتبع المشط لتحافظ على خطوطه، وأعيد النّظر في كلّ مرّة إلى مرآتي التي لم أتنازل عنها، تلك ميراثي الكبير والأهم، أنا لم أفتن في حياتي بشيء كالمرايا، ولم أتعلّق بمرآةٍ مثلما تعلقت بهذه، كانت المرآة التي بدأت تستسلم للسّنوات وشرعت في التحوّل إلى زجاج شفّاف في عدّة نقاط، أحبّ ما أملك، وطالما تساءلت إن كانت شيخوخة المرايا زجاجاً؟ وتساءلت:لمَ يتقصّد عمرُ النجار الفشل في إصلاح المرايا، فعندما أخذ أبي مرآة الحائط ليثبتها على إطار مزخرف، كسّرها عمر وتحرّج من أبي، وعندما أرادت أمي أن تصلّح مرآة خزانتها وجدتني مطيعا جدّا لحظتها وأنا أحمل باب الخزانة الذي يعانق المرآة إلى عمر، لم أفهم لمَ أستاء من شكلها ونزعها، ورماها ليضع مرآة أخرى، أمي فرحت كثيراً ودعت لي، أمّا أنا فلم أعد أثق في شذوذ عمر تجاه المرايا، لقد ألقى بمرآةِ باب خزانة أمي وسط كومة من بقايا الحطب

دون أن يرقّ له قلب، كان صوت تشظّيها أشبه بصراخ امرأة تُقذفُ من الطابق الخامس. لماذا لا يحافظ الناس على المرايا ويقدّسونها، رغم أنها الفضاءُ الذي يستضيف وجوههم يوميا بلا امتعاض؟

شعري يحتاج إلى مثبت ومرهم، ونصحني العيد الحلاق منذ أشهر أن أضع زيت الزيتون مرّة أو مرّتين في الأسبوع وأعصّب رأسي مثل امرأة نفساء، فتعوّدت تزييته، ذلك ينحو إلى مدار غير ذكوري يحوّلني من كبش مفرط الذكورة إلى خروف مخنّث، ولكن ما العمل؟ لأيّ مشوار عليّ أن أفعل كلّ هذا. ثم إنّه يجدر بي عدم التفكير في المبيت خارج البيت وإلا أفاق الآخرون على الانفجار الأعظم الذي يحدث بشعري، هذا الأمر جعلني كثير التحسّس فكلّما مرّر أحدهم يده على شعري كدت أخنقه. آخرهم كان أبي الذي تنازل عن القطيعة وقبل الرّد على تحيّتي الصّباحية، عندما مرّر يده على شعري كدت أدعوه إلى قطيعة جديدة بدل السّلم الذي ينكش شعري.

يقول الرائي: أمضيت سنوات عمرك وأنت تتأمّل الجميع وتلوم خياراتهم، فتكتشف عيوب رؤاهم، وتقترح الخطط البديلة للجميع، تلك إحدى مشاكلك مع الآخرين، تعتقد أنك وجدت لهم حلولا، تجهد نفسك لتبليغها، وتجد أنك سخرية في اليوم الموالي، أمّك كانت تقُول لك باستمرار دعك من ذلك «الطّباب يطبّب عينه العوراء»، وهي تشير إلى شعرك الذي لا داعيَ إيديولوجيا أو جماليا أو عقائديا يمنحه شرعية جرح المشاهد أمام الغير.

في طريق عودتي من الحلاق بخطىً مسرعة، اتقاء عدد كبير من الناس وأنا في حالة العري الرّوحي تلك، لمحت حركة أمام باب بيت الملك الرّاحل، صدقت كلّ ما قيل في صالون العيد. توقّفت قليلا فرأيت خالتي التاقية

تخرج الماء إلى الشّارع، هنا في شوارع الحيّ تصدر كلّ النساء ماء البيت إلى الشّارع، وكأنّه دم البيوت ينعشُ الشّارع، بالكاد لمحتني لتطير فرحا، «يا سهلا دّريس» كان خطابها ولغتها البدويّان يغرساننني في أصولي التي نسيتها سنوات، يعيدان إليّ هويّتي، فجأة أصبح رأسي كلّه هامشاً وليس شعري فقط، دخلت إلى البيت وجلست في الفيناء بينما كانت خالتي التاقية تحضّر «قهوة مخلطة» في المطبخ وتشكو الحال دون أن تتوقّف عن شكر الله، وأنا أتأمّل حركاتها النشطة، وبين الحين والحين تطلّ عليّ من نافذة صغيرة بالكاد تكفي تدويرة وجهها الصّباحي.

ظل بيت المالك الحزين على حاله لسنوات، لم يتغير فيه شيء حتى الألوان الزّرقاء والرمادية والبنية، تكرّرت عشرات المرات، فكلّما همّ المالك الحزين في صبغ البيت أعاد ألوانه وكأنّها مقدّسة، مازلت أذكر تفاصيل غرفة نوم عمّي سليمان، قارورات العطر الخضراء والكتب المصطفّة في ركن أخذ منها اللّون الأصفر، الشّيء الوحيد الذي زال بعد رحيله، كان السّور القصبي الذي ضربه على نافذتي بيته، كي لا يتطلّع أحد إلى التاقية، الآن لا أثرَ لذلك القصب الحزين، كنت في صغري أصغي إلى أحاديث الناس عن سحر الرّجل وشعوذته واستحضاره الجن، فكانت غرفته تتحوّل إلى مسرح للجنّ و«الزقايق» كلما دخلتها، ولعلّ السعدي كان يحكي أو يلعب في غضون ذلك إلا أني اشتغلت بالكائنات الخيالية التي تستحضرها الغرفة متى ولجتها، في كلّ مرّة أغوص في دوّامتها، لا أعلم إن كانت تلك الكائناتُ أشباحاً تتراءى لي وحدي، أم جناً يسكنني، أم خيالاً لا غير؟!!! لا أتذكّر إن رأيت فعلا كلّ تلك الوجوه الغريبة والتي لم أنسها إلى اليوم أم أن تكنولوجيا الملك هي التي صنعت خوارقَ وظلالاً وحركات؟ لم

أحك عنها إلا مرّةً واحدة، بعدها قرّرت أن ألتزم الصّمت، لأن أمّي خشيت عليّ من كائنات غرفة المالك الحزين وحذّرتني من دخولها مجدّدا، خشيت أن أحرم من خوفي ودهشتي في عوالم عمي سليمان، أبي ضحك وأكّد لها أني أتوهّم وأكذب وردّد يا واحد «الماكرو»، وأعجبني رأيُ أبي، فأردت أن أزيدَ عليه تأكيدا، انخرطت في الكذب وقلت إنّ الكائنات موجودة هنا أيضا، هدّأت أمّي وتمكّنتُ من دخول تلك الغرفة وتأمّل ما يدور فيها لسنوات، كان الاقتراب من كتب وأدوات الملك ممنوعاً عن الجميع، بمن فيهم خالتي التاقية، لهذا فإنّها كثيرا ما اشتكت من رائحة الغبار التي تطلع من ركنه الأصفر، بينما ينهرها هو عن ذلك، كانت متأكّدة أنّ كلّ ما يقوله زوجها حقيقيّ، وأنّه عبقريّ، وأنّ لديه السّلطة على الجنّ والقدرة على إيذاء البشرية كاملةً، إلا أنّه لا يريد ذلك.

في الغرفة الدّاخلية التي تحيل عليها غرفة الملك كان ينام السّعدي، نمت معه غير مرّة، كان يملك صورة له ولجدّه وأخرى لجدّته من أبيه على الجدار، وخلف إحداها كان قد ألصق صورة فطيمة حيث لا يراها إلا هو، وأنا أعرف بالأمر طبعا لأني من أحضرها له. في غرفة السعدي كانت هناك خزانة مطبخ «بيفي» بلون بنيّ برّاق، من طابقين، الأرضيّ لكتبه وأدواته المدرسية، وبعض أدواتي أيضا بمناسبة علاقتنا المتينة، والثاني لألبسته. تلك هي الحياة الحقيقية، أن تضع ألبستك وحاجياتك في خزانة يُفترض أن تحوي أوانيَ المطبخ، سحر الحياة بالنسبة لي كان وما يزال أن نصدمَ توقّع الآخرين.

يقول الرّائي: أمر ما جعلك تسعى لتكون غرائبيّ الحضور، الجميع اكتفى بالنظر إليك دون ردّ فعل في البداية، مع تطوّرك كطفل بين الجنون

والجذب أصبح أهل الحيّ يترقّبون ما ستفعله، وحكاياتك ومغامراتك في البداية وحدك، ثم مع السعدي، ولاحقا اكتشف الملاحظون ومسترقو السمع والبصر والمتطفّلون.. أن ثالثتكما ومدلّلتكما فطيمة هي جوهر الجنون أو الجذب، كان مالكُ الحزين رَجُلَك الحُلم، طالما تعلّقت بصمته، وبنظراته المريبة، كفل لك الجانب الجنونيّ، بينما لم يرضك وجود سي المصفى شيخ الكتاب، ولا الشيخ الماحي الإمام، وقد شكّلا لك الجانب المنطقي المعقّد. مالك الحزين وابنه وزوجته.. منحوك لحظاتك الآسرة دائما، لكنك أردت أن تضعهم كعالم موازٍ لك لهذا فقد كنت تريد دائما أن يكون لك حياتين واحدة لأهلك والأخرى لك وبينهما صديقاك وحبيباك فطيمة والسّعدي كعامل مشترك.

أنا لم أملك أيّ صورة في غرفتي الأكثر ضيقا ونورا، ولم يكن بها سوى عصا جدّي الفضية التي تضيء ولا يصدق أمرها أحدٌ، غرفة السعدي أوسع وأخفض نورا، تلك اللّيالي التي قضّيتها معه، لم تخلُ من الكائنات الغريبة التي رقصت وغنّت وبكت وقهقهت، حتى أني سمعتُ صوتَ بكاء أبنائها الصّغار في ليلة شتويّة طويلة، مات فيها السّعدي فلم يفق رغم كلّ الذي فعلته معه، لماذا تجنّ الرّيح عندما نكون خائفين؟ ما زلت أعتقد أن الرّيح تتضامن مع الخوف فكلما خشي المرء قفزت هي وأفاقت.

في إحدى الليالي دخل رضيع بوجه مخيف إلى الغرفة، كان السّعدي نائما، ورأيت الطّفل يجري في أرجاء الغرفة، حاولت أن أقاوم وجوده، نفضت عينيّ أكثر من مرّة فكانت تصحّحُ لي وجوده وتضيفه نشاطا وحيوية، هل لطفل في هذا العمر أن يفعل كلّ هذا؟! قفز وانقلب في السّماء ورقص، حوّلت عيني عنه، وضعت كفيّ على وجهي واستدرت نحو

السّعدين كان الخوفُ يلُفّ المكان، كنت مرعوبا قبل أن أسمع صوت الملك الذي يتيحُ لي قليلا من الطّمأنينة، أليس الوحيدَ القادرَ على لجم عبث كائناته المرعبة؟ تحوّلت الغرفة إلى جلبة، التاقية والملك وحتى السّعدي يجرون خلف الرّضيع المخيف، وهو يصدر قهقهات خشنة تُحوّله إلى مارد، فتحت عينيّ فكان الأمر حقيقيا، ربّما استغرقت المطاردة خمسَ دقائق أو ثلاثين ثانية، لم يخرج الرّضيع المارد، لكنّهم فجأة توقّفوا عن مطاردته، انصرف الملك ثم خالتي التاقية وعاد السّعدي إلى فراشه بقربي، كنت أتنقّل بنظراتي بين الجميع، تأمّلتُ المخيف في المهد، كان مقرفصا في ركن الغرفة بعيون تلمع، وأنف حاد، وشعر مبلّل، وشفاه شديدة الحمرة، يضع يده على خدّه كأنّه يفكّر في أمر ما، بدا كأنه سيقدم على أمر جلل، لماذا ترك الجميع مطاردته فجأة ودون سابق اتفاق؟ للحظة أردت أنْ أخنق السّعدي لتجاهلي ودفعي إلى خارج هذه الهستيريا التي تستضيفها غرفته، استدرت إليه فإذا به على الوضع الذي سبق عوض الرّعب، أردت أن أنظر مجدّدا ما يفعل طفل العالم الآخر في الرّكن خلفي فشلت، شعرت أنه قد انتبه إلى وجودي وأنّه يتأمّلني، اتسع الوقت على تلك الوضعية، بعد دقائق طويلة ومرعبة تغلّبت على خوفي واستدرت فلم أجده، وفي الصّباح لم يتحدّث أحدنا عنه ولم أنس أمره ولا تذكّرته.

عندما وضعتْ أمّ السّعدي القهوة أردت أن أدخّن سيجارة، لكنّني تحرّجت فأنقذتني عندما تدخلت «اكمي قارو ينحلك وجع الرأس».

استغرق بقائي عند التاقية ساعتين أو أكثر، تنقّلنا في عدّة مواضيع وأمام الباب ولجنا عوالم أخرى، كانت تحكي وهي تمسك بيدي وبداخلي يتسرّب شعور بالذّنب تجاهها، لقد أغفلتها طوال سنوات واشتغلت بشعري

في الأشهر الأخيرة، لم أكن حاضرا خلال مرض الملك وشلله ورحيله عن الدّنيا، كنت أضيع في ظلّ بارد لحيّ يسمى «ديار الشمس» أو «صون ميزون»، كان السعدي يضيع في ليبيا، وفطيمة في عالم كبشها السّالب، والبلاد في أوهام السياسيين والموت ومصالح البطون.

بقي طعم القهوة «المخلطة» في فمي ليومين أو ثلاثة، قد ننسى أشياءً بسيطة تمنحنا السّعادة رغم أنها قريبة منا، لسنوات لم أشرب قهوة مشابهة، لعلّ أمي حضّرت القهوة المخلطة غير مرّة ولم يكن انسحابي من المشهد يتيح لي التنعّم بنكهتها.

علمتُ من الخالة التاقية أنّ السّعدي بعث أكثر من رسالة، ولكنّه لم يتحدّث عن مجيئه، فسقطت أحاديث عاطلي صالون العيد في الوحل الذي تسبب فيه ماؤها أمام باب المالك الحزين، وعلى ذكر الحزن الذي لم يغادر وجهه، والتجهّم الذي وفى له المالك الحزين، أشعر أني كنتُ في كثير من المراحل أميرا حزينا، عمر النجار الذي كان إلى جوارنا ورغم أنه من أطلق عليه التسمية فقد كان الأكثر حظّا في ابتسامة المالك الحزين، كثيرا ما شهدت حديثا حميميا بينهما وابتسامات سريّة من الملك تعدّل من تجهّمه وتبسط قليلا خطوط الشّقاء على وجهه، عمّي الملك كان يجلس بافتخار مفترشا التراب، وكانت قامته طويلة لدرجة أن مروره على النوافذ كان مصدر إزعاج للكثيرين، كنا نقول للسعدي: إنّ أباك «يطل على الدزاير».

واجهني مدخل بيت الحاج بورقيبة الذي لم يحجّ يوما، الجميع يعرفون أنّ سنوات الدّم قلّلت من اهتماماته النسائية وأخمدت نزواته، فبعد أن كان زيرا شهيرا توقّف مجبرا خشية أن يسقط في يدي «الرّباعة» أو كما

ردّد هو، وكان الشيخ الماحي وسي المصّفى وأبي، وعدد من عقلاء الحيّ قد زاروه في أيّام عنفوانه، ليهدئوا من جنونه، ويبدو أنّهم لم يفهموا أو يشرحُوا ما قيل لهم ولا ما قالوه له، وخرجوا مختلفين فيما بينهم، رفض إعادة الزّواج واكتفى بعيشوش التي لم يكن يعوزها الجمال ولا الأنوثة. لاحقا اشترى له لقب الحاج عندما غادر البلاد في رحلة لهو ثمّ تحوّل اثر قدومه إلى الحاج بورقيبة، أبي لم يكن يحبه ولكنّه خُدع بحجّة التوبة وهنّأه وعبّر عن سعادته، الحاج بورقيبة بدوره أهدى والدي «قندورة» قميصا أبيض صلّى به جمعاته اللّاحقة متبرّكا برائحة البقاع المقدسة، عندما شاع خبر الحج الكاذب لبورقيبة تأزّم أبي نفسيا، لقد كان صادقا جدّا ومصدّقا جدّا، أمّي تصفه بالـ«نيّة» أي الذي لا تحضره الحيلة، ولكنها أردفت في مواساة له «مول النية مربوح وقليل النية مفضوح»، أنا كنت أعرف أن أبيْ ليس نية، لكنه لا يحاكم نوايا الآخرين بل أفعالهم، ثمّ إنه قلما أبدى تذمّره تجاه أحد، وهو رجل يفضّل أن يكون مظلوما ومقهورا على أن يرى الظلم أو القهر في الجهة المقابلة، الحاج بورقيبة الذي خدع أبي وخدع فطيمة وخدع زوجته عيشوش، الكائنَ الصّموتَ، عشرات المرّات بعلمها، ومئات المرّات وهي تشكّ أو تجهل خداعه، خدعنا أنا والسّعدي الذي تغيّر منذ تزوّجت فطيمة،لم يبال بكلّ ما جرى حوله وواصل تحدّيه للآخرين، حتى عيسى القاوري الذي كان دليله ولسانه في رحلته الماجنة ورفيقه المزعوم في أكذوبة الحج، لم يكن حاقدا عليه بعد أن زلّ لسانه في ليلة سكر واعترف برحلته مع بورقيبة الذي استعبده لدهرٍ قبل أن يأتي الفرج من باريس كما ظلّ يردّد «العجوز أرسلت لي حقي» يقصد أن فرنسا منحته حقوقه، وكان القاوري الإنسان الأقلّ عملا في التّاريخ، فلم يعمل

طوال حياته كاملة لسنة مقفلة. ولعلّه قضّى ستة أشهر في فرنسا بداية الستينيات، يعمل ويتسكّع في باراتها، فتذكّره التّأمين الاجتماعي، بما جعله يشعر بغناه وعدم حاجته لبورقيبة الكذاب كما نعته في آخر سكر.

لم أعرف متى جاهد الحاج بورقيبة. إلا أنّه حصل على مكانة محترمة ضمن مجاهدي الولاية. فلا تمّر مناسبة إلا وكان حاضرا فيها مع أعيانٍ ومسئولي الولاية، وإذا لم يطلع عيسى القاروي آخر لينفي عنه بطولاته في الثورة فإنه لن يتنازل عن الصّف الأول، ولن يتوانى في تقديم أحد ابنيه ليكون فاعلا في تنظيم أبناء المجاهدين، عيسى أيضا فسّر تسميته عندما حكى أنه كان في تونس، واصطف مع حشود من التونسيين، استقبلوا رئيسهم الذي سيُخلع الحبيب بورقيبة فسلّم عليه ضمن من نالهم الحظ، والتقطت له الصّحافة صورة نشرت بإحدى الجرائد التونسية، وظلّ يردّد أنّه يعرف بورقيبة في كلّ المناسبات ويحتفظ بالجريدة ويلعن بن علي لأنه استولى على كرسي صديقه بورقيبة وسمّمهُ حسب تحليله الخاص.

عندما سُجن الحاج بورقيبة «قليل النية المفضوح» منذ أشهر قليلة حدث طلاق فطيمة، اعتقد الجميع أنه لن يخرج من السّجن سريعا بعد أن صفع ضابطا في الشّرطة، الضّابط الشاب كان يطبق ما يسمونه عبثا «القانون»، وأراد أن يحرّر مخالفة لمن «حرّر البلاد»، من سوء حظّه اعتقد أنّ الرّجل العجوز ذا التجاعيد الغائرة سهل الرّكوب، والسبب أن بورقيبة ظل منذ أزيد من ثلاثينَ سنةً يركبُ سيارة بيجو 404 تصلح لدخول متحف السّيارات القديمة، لم يعترف بسيارات القرن الجديد ولا بسيارات نهاية القرن الملتفت، اعتبرها «كرتون»، ولم يعترف إلا بالأسد كماركة.

الأسد العاجز خضع أخيرا لرغبة فطيمة، واستعادت هي حرّيتها، ربّما

كانت تتصوّر أنّ والدها سيطيل الإقامة في السّجن فانتفضت على زوج مع وقف التنفيذ، داخل الزنزانة لم يقم بورقيبة إلا يومين، وعاد بعد أنْ سعى لتحريره من ظلم الضّابط كلّ أعيان البلاد، واعتذر الضابط من المجاهد وتمّ الصّلح، بعدها اختفى الضابط، قال البعض إنّ بورقيبة نفاه إلى الصّحراء، وآخرون أكدوا أنه استقال و«حرقَ».

يقول الرائي: كلّ شباب البلاد كانوا يفكّرون في «الحرقة»، جميعهم أراد أن يركب «حراقة» ويترك الوطن. إلا أنت كنت تجهل من كثرة غوصك في حيّك وجود أحياء أخرى، ناهيك عن مدنٍ ودولٍ وبحارٍ ومحيطات.. كنت مستغرقا في الحيّ بأجزائه الصّغيرة، تماما كما يفعلُ شبابُ الحيّ كلهم، لا أحد يفكّر في ترك هذا الفضاء السّحري، كان تجمّعا خارج العولمة والحداثة والتكنولوجيا، تجمّعا يأسر لحظة تاريخيّة أخرى غير التي تحكم العالم، يبكي شيوخه لمصرع صدّام حسين، كان أغلب شباب الحيّ لا يملكون إلا بطاقات الهوية، لا شهادات حياة ولا شهادات وفاة ولا موقفا من الحياة، لا يملك أهمهم حسابا بنكيا، بل لا أحدَ سمحت له الحياة وفرصُها التي تتكاثر أن يَلِجَ بنكاً، الشيوخ من سكان ديار الشمس يواجهون البرد بقشابياتهم، ويتّجهون أواخر الشّهر إلى البريد ليقبضوا معاشَهم، النساء كأنهن من عائلة واحدة لا يلتقين كثيرا، وأخبارهن تسري بينهن بلا نظام إعلامي جديد أو قديم، أما الأطفال فيجتهدون لاتخاذ مواسم للعب، موسم «البوبراي»، موسم «البي» وموسم دائم للّعب بكيس الحليب المعبأ بالقشّ بدلَ كرةٍ حقيقية.. حتى الملعب الذي لعبتَ فيه صغيرا.. مُنع عن الأطفال الذين بعدَك، تحوّل إلى سوق للخضار، وضاعت المساحةُ الأخيرة التي افترض فيها ملعبا، كان الفقر أمراً غريباً عن الحيّ، لا أحد

يفهمه رغم أنهم يعيشونه واقعا، رائحة الماشية التي تعبق الصّباحات والمساءات معا، تلك الرّائحة التي تعيد الرّوح وتسكن في ملابس الكادحين من أهل الحيّ، كانت تجعل الجميع يسعى للوصول إلى صورة الفحل، الكبش النموذجي الذي لم تكنه يوما لأنه لم يكنه والدك ولا جدّك، أنت لم تنعم بتربية الماشية لا في البيت ولا خارجه، اكتفيت بالحيوية في الحيّ.. إذا كانت الوطنيةُ من الوطن.

3- فَطيمةُ التي تُخصي السّباع

أفقتُ متأخّرا كالعادة، اليوم هو الفاتح من جانفي، من سنة مأهولة بالأحداث والجرائم والأنباء، لكننا في ديار الشّمس خارج الوقت، وبعيدون جدّا عن العالم وعن الأحداث التي يصنعها البشر، نحن كائناتٌ بسيطةٌ تنام وتفيق بحثا عن اليوم، لا يعنينا كثيرا الغد، والأمس ملفوف بالحنين على الدّوام، وإن كان يرعى كسورنا.. هذه إذن سنة لن تحتفي بي، أنا لا أقيم للزّمن اعتبارا بسبب إنتمائي، ولأني -كذلك- لم أجرؤ يوما على فهم مؤدى الزّمن أو التّفكير فيه، لعلّ الكثيرين يريدون أن يلصقوا بي صفة الإرهابي فقط لأني أصلّي يوم الجمعة في المسجد، وأتردّد عليه في صلاتي المغرب والعشاء، وهي صفة أتمناها في تيهي، في حيّنا حيث تكبر الصّدمة من اللّحية، تجبرك نظرات الآخرين على تخفيفها يوما بيوم إلى أن تصبح حليقا، اقتنيت عدّة أنواع من شفرات الحلاقة، لكنّ ذات الثلاث شفرات لا تضاهى وتعودت في الآونة الأخيرة أن أحلق ذقني كلّ مساء، عادة أفيق في السّاعة الرابعة أو الخامسة مساء، لم نعرف حادثا مثيرا، لكن صفات الإرهابي والمتدين والصّوفيّ والمجنون ورجل المخابرات كانت كلّها واحدة، وأنا كنت على تلك الصفّة مجموعة شذوذ.

هذا بالتحديد ما حصل معي.. كنتُ مُلتحياً وأُجبرت على كشف وجهي، أشعر أنني أتقاطع في المصير مع فطيمة التي كانت ترتدي جلبابا، جعلني أتأكّد أنني لن ألتقيها مجدّدا، ثمّ فجأة تحوّل إلى حجاب كلاسيكي منظم، وعدت إلى تأمّل وجهها ذي الملامح الطّفولية، وبسرعة أقلّ أصبح غطاءَ رأسٍ وحسب، نجحت في إقناع الجميع أنه يجب أن تعود إلى تبرّجها، والغريب أن الحيّ تقبّلها.

يقول الرائي: فطيمة بجسدها المبهر، الذي تعود على الاحتفاء به أكثر من أيّ جسد أنثوي آخر في العالم -وعالمك لن يكون أكثر من ديار الشمس- لا يمكنها أن تكفّ عن الافتخار بنفسها بسبب صالح بطاطا، وليس بسبب كفّ البصر الذي يمارسه الرّجال لدى عبور النساء في شوارع الحيّ، بينما لا يتوانون في تأمّلهن إذا أتيح لهم ذلك. كان الرّجال يعرفون النساء في جلابيبهن وملاحفهن وحجاباتهن، يحفظون الفرق بين فلانة وعلانة من خلال المشي أو من خلال العيون أو من خلال الحركات، ويتفق أن يقول الرّجل لزوجته إنّ فلانة ذهبت إلى الحمام، أو أنها زارت فلانة، ولا تسأله: من قال لك إنها هي؟ ببساطة لأن زوج فلانة يعرف إن خرجت امرأة هذا الأخير في كامل غطائها أنها هي.

أنا أتململُ في فراشي وأغنية والدتي واحدة وأبدية، تستعير عادتها في رمضان وتتساءل «أيّ صيام لهذا المصيبة؟» وأنا أرصدها في غرفتي بعين وأحفظُ النعاس بالأخرى، وقد تعوّدتُ أن أصوم يومي الاثنين والخميس مع والديّ، رغم أنّي لا أشعر لا بالجوع ولا بالعطش وبمجرد استيقاظي يكون المؤذن قد تأهّب للمغرب، فيقول أبي: أنت تفطر معنا، أما الصيام فأنا لم أشهد عليه.

تحوّل السعدي إلى مشروع أذيّة صارخة منذ عاد، ولم يكفّ عن إعلانه كرهي، في البداية تصوّرت أنه يمازحني، وأنّ مزاجه تغير بعد سنوات ليبية طويلة أثّرت على لهجته وعلى تصرفاته، لكنّه واصل النّظر إليّ بحقد دون أن يقاطعني، عيناه ازدادت حدّة وأسئلة وشكّا يوما عن يوم، ولم يتوان في البحث عني كلّما غبت، كأنّه كان يخشى أن أفرّ أو أختفي، لم يكن بيننا حوارٌ طويل، كان يسرد أشياء ضبابية عن حياته خارج الجزائر،

لم أتُق يوما لوضوحها، يتحدّث عن ذكرياتنا معا، ويحدث صفيرا مقصودا بلسانه عبر الفراغ الذي تركه سنه الذي فقده صغيرا، ذلك الصّفير كان يتحوّل إلى دويّ في رأسي وأنا أتذكّر ما فعلته به، كان بوسعي أن أفهم الكثير من أسباب تغيره لكنني لم أفهم لمَ قد أكون عدوًا له، وربّما كنت أعرف وتظاهرت بأني أجهل الأمر.

يقول الرائي: أبوك لخضر نعيم حافظ على صورة واحدة له بين سكان الحيّ، رجل أمضى كلّ سنوات وعيه يبتعد عن الشبهات التي يرى أنها تنقص من كمال الرجل، لا يستدين من أحدّ، لا يدخن، لا يأكل في حضور أناس لا يشاركونه الوجبة، لا يلبس ما لا يستطيع الجميع لبسه، لا يمشي دون إلقاء التحية على من يلتقيه، لا يتحدث في أعراض الآخرين، يبتسم للأطفال، يخلص لأمك، يسعى لتكون أنت وشقيقك صالحين، يدخل البيت في المساء فلا يغادر إلا للصلاة خلف سي الماحي أو سي المصفى، بعد صلاة العشاء ينام كأن دورة يومه انتهت. كان هذا الأمر يجعله يبدو سلبيا بالنسبة لأمك، لكنها لم تخرج هذا الشعور إلى أحد، بدا لها وكأنّه ينسحب من الحياة التي يتفق عليها الناس ويؤسّس لحياة موازية، ورغم أن والدك يبدو عاديا إلا أنه في نظر السعدي نموذج للأب الصالح، فأنت لم تعاقب في الشارع يوما، بينما حصل هو على نصيبه في الكثير من المرات على يد المالك الحزين، أبوك يحبك ويبتسم في وجهك وأبوه منشغل بالخيال والكائنات الأخرى، أبوك لا يصرخ في وجه أمّك وأبوه يصيح فتسقط التاقية، ويصيح أخرى فتهبّ واقفة، أبوك أكثر تنسيقا من أبيه، وأنت أقل تنسيقا منه، كان السعدي يعتقد أن مكانك في مملكة سليمان والتاقية، ومكانه في مأوى لخضر وخيرة.

البرد الذي يعصف بالخارج، لا يتسرّب إلى داخل غرفتي مفرطة الدّفء، استغرق تململي في فراشي الذي تنبعث منه روائح الكسل واللاجدوى ساعتين، كنت أدفع عني رغبة ملحّة في التبوّل، تكوّرت كرة بولية أسفل بطني حتى خشيت أن تنفجر لأبسط حركة، كأنّ العالم مثانة حاقدة.

أبي يعرف أنّي أسطورة فشل، لهذا توقّف عن حثي على أيّ شيء، أمي يئست من نتانة غرفتي التي يمتزج فيها دخان معتق برائحة النوم القاهرة لتركيز أيّ إنسان، لهذا فهي لا تملّ من ترديد «العين التي أصابته لم تترك فيه ما ينفع»، وأخي كبر وبدأ يكتشف أن دوري هو الهامش الرّمادي حيث لا حركة ولا هدوء.

كان تحوّل فطيمة جارحا للجميع، وقاتلا بالنسبة للسّعدي الذي لم يعد يحتمل أن يسمع حديثا عنها، أنا التقيتها سرّا مرتين، المرّة الأولى منذ أسبوع والثانية البارحة، لم أعرف منها كلّ الحكاية، ليس كيف انفصلت عن والدها وأهلها وتركت زوجها، لكنها قذفت إلى داخلي شيئا قاسيا هزّني وهي تتحدّث عن الهزبر الذي كانت معه، كلّ تلك القامة وذلك الانتفاخ، ولم يحدثْ شيءٌ ذو بال؟ كلّ تلك السّنوات وما تزال المرأة تنتظر أن يتخلّص أسدها من عجزه، لترى معه معنى لذكورته ورجولته التي قاسها الحاج بورقيبة بخبرته وفراسته الكبيرة فخاب، بينما كانت تصلنا أخبار عن رغبته في الزّواج، لأنها لم تنجب كانت هي تتعذّب في لياليها، ويغطّ هو في نوم عميق، أمّها رفضت أن تجاريها في موضوع بهذه الحساسية، ولم يكن بوسعها أن تتحدّث عن واحد من كباش الحاج بورقيبة وتصفه بالعجز وتقذفه في فحولته، أما بورقيبة فقد جدّ في البحث عن زوجة لهذا الكبش الكسير.

عندما جاءتني ليلا منذ أسبوع أكدت لي أنها لم تنس حياتنا معا، قالت إنّ أخباري لم تكن مقطوعةً عنها، كنت سعيدا لأنها تخبرني بهذا، ولكني أشعر بالخوف من عين قد ترصد وقوفها عند الباب، أدخلتُها غرفتي خلسةً وبتنا طوال الليل نحكي سرّا، ضحكنا كثيرا رغم الضّيق الذي يلفّ مصيرنا، أخبرتني بالكثير من الحكايات الساذجة التي حوّلت حياتها من فرح إلى كابوس، لم تكن تستطيع أن تنطق اسم صالح زوجها، ولا والدها، واكتفت بالحديث عن كلّ منهما بضمير الغائب بينما أستنتج أنا أيّهما تقصد، شعرت أن ألمها اتّسع وعليّ أن أضيّقه، اقترحت عليها أن تبقى عندنا ويحاول والدي أن يسوّي الأمر، في ليلتي تلك غفت فطيمة ولم أغف، تأمّلتها في نموّها الباهر، تحوّلت من فتاة ندية إلى امرأة كاملة النّضج، كان الفجر أقرب من كلّ الأمنيات، مررت بأنفي حول عنقها وشممت رائحة الحياة التي لم أعرفها، وتصوّرتها فلم أخب.. أعدتُ قراءةَ جسدها كما كنت أفعل في الطّفولة، كان منسقا ليكون لأمير، كانت معدّة لتكون سعيدةً.. فما الذي جرى؟ كانت تلك القراءة أكثر متعة من أيّ كتاب، كان نصّها ما يشتهي القلب والعقل، فجأة قفزت وحملت نفسها، سألتها البقاء، وأنا أشكّ في قدرتي على مواجهة الكباش الضالة، ورفضت وهي تعرف أيّ ضعف أنا عليه، رأيت في عينيها إرادة وعزما، ورأيت أيضا تيها وخوفا.

يقول الرائي: عندما غادرت فطيمة كنت تستعد للمغادرة خلفها، أردت أن تمسك يدها وتجريان بعيدا إلى حيث لا يمكن لعين أن تصل إليكما، بدا الطّريق رديّا ناعما، وأنت تشدّ يدها وتتبادلان ابتسامات الفرح دون كلمة، استغرق ذلك وقتا، وأنت مسمّر أمام الباب، عندما همّ والدك بالخروج كان هو من بادر بإلقاء تحيّة الصّباح عليك، واكتفيت أنت بابتسامة ساهمة في فجر فطيمة.

كان عليّ أن أشعر بالذنب طوال أسبوع بسبب غيابها، ألتقي السّعدي كلّ مساء ونمضي مع بعض سويعات بين الصّمت والاستفزاز وردّه، يعرف عن غياب فطيمة وأخبرته أنها جاءتني فأبدى استغرابه بل إنه انتفض في وجهي وأنبني لأني تركتها تغادر، لم أكن أحتاج إلى تأنيبه لأقسو على نفسي، فغيابها يذبحني، كلّ الاحتمالات القاسية تدافعت في سواد الأفكار، أتجوّل في المدينة على أمل أن أعثر عليها، أقيس الشّوارع والأماكن على خطاها، وأشمّ رائحتها دون جدوى، وضعتُني في صورتها، صورة امرأة وحيدة وغريبة «أين سينبغي أن أذهب؟»، لم أعثر على جواب لأني لم أكن حقّا امرأة بلا مأوى، كان الأسبوع البارد قاتلا ولياليّ المدينة الهادئة عواصف في الرأس، بعد أسبوع من غيابها عادت لتلتقيني عند الشّارع وهي ترتدي ملحفة بوعوينة، مررتُ غير منتبه عندما استوقفتني، هذه المرّة بدت مستاءة من الجميع، ولم أفهم شيئا من ثورتها العارمة، بعد أن هدأت وتماسكت غرست في قلبي شظايا جديدة.

عاد والد فطيمة من سجنه السّريع ولم يعصف بابنته، لأنه اعتبر أن صهره السّبع قد خانه وطعنه في الظّهر، رغم ذلك سيظلّ يلاحقها بعباراته القاسية، أما هي فكانت أقرب إلى الثائرة، وبقدر ما شدّد عليها أن تبقى في البيت، بقدر ما أكثرت من الخروج، وتحوّل بيت بورقيبة اللّيلي في النهار إلى وقائع حرب النجوم، صراخ متبادل وتوعّدٌ متواصل، الأسبوع الماضي نُقل بورقيبة إلى المستشفى بسبب نوبة سكريّ، لم يكن يستخدم الأنسولين، لكن فطيمة ستحيله على علاجه الجديد.

تمرّدت إذن فطيمة.. أنا كنت سعيدا ومتوترا بسببها، أشعر أنّها أخذت حقها وفي الوقت نفسه لم يعجبني أن تتحوّل إلى حكاية على كلّ الأفواه،

السّعدي اجتهد في لجم الجميع عنها. كانت قضيّتنا معا، بدرجة أقل أنا، تمنّيت لو أنها أنجبت وانتهت إلى مصير أخواتها السابقات: أمّا تُحسن تحضير «المذّكّر» و«البغرير» و«الفطير» و«الرّفيس» و«الشرشم» لابنها الذي يحكّ لثّته سنّ بريء، داخلي رغبة في النأي عن المشاكل، أنشد السّلام وهي ثائرة تريد أن تأخذ حقّها في تقرير المصير، لا مصير لي إلا ما جادت به المقادير، ربّما كان الأفضل لو أنّها لجأت للسعدي.

شعرت بألم بورقيبة. أليس علينا أن نتأمّل وجهة نظر الآخر. كان بورقيبة آخر بالنسبة للجميع، ولأيّ مخلوق على البسيطة لن يكون إلا آخر. عندما كانت نساء بيته بصدد الخروج وركوب السّيارة كنّ ينحنين، ولا يركبن معتدلات، فيظهر بعض من حسنهن الذي أعرفه وأحتفظ بصوره داخلي، أمّا هو فينتصب بعصاه يتحرّش بنظراته العابرين لعلّ أحدهم يدير رأسه، ولأنّ الجميع يعرف قوانينه فقد كانوا يديرون رؤوسهم أو يتظاهرون بالاشتغال، فيما يسترقون النظر لساق تبين أو يد تضيء. الوحيد الذي لم يخضع لقانون بورقيبة الجائر كان المالك الحزين سنوات حكمه، وهل يخضع الملوك إلا لسلطانهم؟ كثيرا ما نشبت ملاسانات بين الرّجلين أظهرت حدّة لسان عمي سليمان. فكان بورقيبة يلعنه ويفقد أعصابه، بينما يرّدد هو بهدوء ما يجعل بورقيبة يقفز ويزبد ويرغي دون أن يغيّر من موقع الملك الذي يجلسُ في عرشه القصبيّ غير مبال بالطّامعين به.

بعد موت الملك تكفّل بورقيبة بالجنازة وغاص في حزن طويل، وعمّ الشّارع الهدوء، فقدنا جميعا معلما بارزا، بورقيبة هدأ، ولم يعد يجد سببا للصّراخ في الشّارع بعد أن ترك الملك عرشه، بدا المكان أكثر اتساعا، أكثر

فراغا في غيابه. أثناء السّهرات الجنائزية التي استضافها بيت المالك الحزين، كان الشيخ الماحي يتصدّر الحضور بحكاياه وتحوّل سريعا حزن الجميع على الملك إلى نشوة عظمى، عندما انطلقت حناجر الفرقة التي جلبت خصيصا للبكاء على الفقيد، حوّلت الفرقة الجلسات إلى مسرح لعروضهم التي كانت عالية الفنية وعلى قدر كبير من الدرامية، لكنها أنست الجميع ميت الحي، فقد تحوّلت السّهرات إلى ما يشبه الحزن المجاني، ذلك الذي يتسلّل إلى الدّواخل إثرَ مقطوعة موسيقية، أو لحظات فراغ شعوريّ بلا جدوى، يستبد فيها حزن مشابه، بكى الحاضرون امرأةً، والميت كان رجلا! «أمّا عيني فراقك بكانا... وما نرقدش اللّيل كل ليلة حزين... يوم فراقك يا حبيبه عيانا... ومحمحلي كبدتي نا خلاني شين»، الرّؤوس تتمايل، والإيقاع الحزين يطبق على المكان، أنا.. كنتُ أكثرَهم حزناً، كأني كنت أبكيني، عدت إلى سنوات خلت، وعجزت أن أستدعي تفاصيل تبرّر لي هذا الحزن، لهذا اكتفيت بصور سريعة لمشاهدات مالك الحزين وأجوائه، في النهاية كنت أحمل ما يسمح لي بالانخراط في الجوّ الجنائزيّ، الميت لم يجد له مكانا في حزن الجميع بعده، لم يكن أحد حزينا على الملك أكثر من دواعي حزنه الذاتية، خالتي التاقية لم تبد ضعفا وإن كانت حزينة حدّ السّواد، لم أرها يوما تخفت وتفقد بياضها كتلك المرّة، السّعدي كان الغائب الأكبر، وطعام المعزين كلّه حضّرته فطيمة في بيت الحاج بورقيبة، قالت أمي يومها: «يا سعدك يا اللي قفلت دارك على فطيمة» ورمقتني بنظرة لا حدود لرسائلها القاسية، ولكني لم أحبّ فطيمة يوما، أقصد أنّها لم تكن بالنسبة لي حلما بهذا الشّكل، أنا كنت أحبّ كلّ النساء، أحبّ تحرّك شعورهن، ابتساماتهن، حركاتهن السّاذجة حدّ

الطّفولة، أحبّ غيرتهن وإفراطهن في التقليد، وضمن النساء كانت فطيمة مدرستي الأولى، ولم أفكر يوما أن نكون شقيقين، ولا أن نكون حبيبين، أو زوجين، لم أفكر في فطيمة إلا كما هي، بنت الحاج بورقيبة، الرّجل القابع بين الحقيقة والخيال. أسطورة الظل وكذبة الشمس في ديارها.

كانت فطيمة قوية منذ صغرها، لكنها امتلكت ذعرا غير مبرّر من والدها، تزوّجت شقيقاتها تباعا وهي صغيرة، ولم يكن بيتنا فضاء فرح. فكانت المشهدية البورقيبية مثيرة لنا، وحوّل السعدي كلّ اللقاءات إلى استجواب لفطيمة عن التفاصيل التي تصاحب الأعراس، تدوّخني نظريات السّعدي الايروتيكية كلما انفرد بي تماما كما تفعل كاتنات والده.

عندما كان والد فطيمة يزفّ البنات تباعا كانت تتألّق هي عرسا إثر عرس، راقصة ماهرة تتقن التمايل والتمايح، والقفز والاهتزاز على إيقاع الدّف النّاثليّ، كانت نائلية منذ الأبد، لا أعرف لماذا كان جدّي يسميهم «عيال الشّاوي»، وكان يصرّ على معاملتهم برفق لأنهم أجانب، أنا لا أذكر أنهم قدموا هنا بعدنا، عندما فتحت عينيّ وجدت فطيمة تلعب في الشّارع، وأخواتها يشترين من حانوت علي دايخة ووالدهم الحاج بورقيبة شامخ في الشارع.

يقول الرائي: جدّك هو أوّل من فتح الحيّ لتلك العائلة. كان بورقيبة شابا عندما نزل ضيفا ثمّ تحوّل إلى فرد منا، جاء من الشّرق لا أحد يعرف من أين بالضبط في الشرق! تزوّج من إحدى بنات الحيّ وبالغ في الانتماء إليه، يقولون إنه كان من مجاهدي المنطقة، وإن رفاقه تفرّقوا بين شهيد ومعطوب، واختار هو البقاء في المنطقة بعد استقلال البلاد.. كان بوسع جدّك أن يستضيف من يشاء، وأن يقولَ ما يشاء، كما بوسع كلّ

أفراد الحيّ، ليس بينهم كبير وصغير، ليس في تاريخهم وجيه وحقير، بدوا جميعا على كفّ التساوي، الذي يحاول الارتقاء قليلاً يُلفظُ، والذي يحتقر نفسَه أو يهوي قليلا يلقى عذابا إلى أن ينتفض، كان مجتمع ديار الشّمس نموذجًا بشريًا موحّدا، لأجل هذا فإن جدّك حارس مقبرة النصارى ووالدك وبورقيبة النافذ خارج الحيّ ومالك الحزين والقاوري يملكون حقوقا متساوية، ولا أحد يسيطر حيث تنام الشّمس.

أذكر قدوم المالك الحزين وابنه السعدي إلى الحيّ، ربما جاءوا من حيّ آخر غير الذي نسكنه، في المدرسة كان ذهابنا إليها يشبه النّزول من جبل، تملّكني الرّعب في الأيام الأولى، ليس لأنّ المدرسة بعيدة، أو مكانها مجهول بالنسبة لي، ولكنني كنت أخشى نزول تلك الحفر والتجرّؤ على تضاريس المكان، فطيمة بلى... كانت تمنحني قوة وهي تمضي أمامي، تلتفت وتصرخ بي «إدريس تحرّك ضرك يسكروا علينا الباب»، ولم نكن نصل متأخرين رغم ذلك، لاحقا أصبحنا ثلاثة ولم يخش السعدي تعوّجات المكان، كان كتوما في البداية قبل أن يتحوّل إلى طفل كثير الكلام والشّجارات مع الآخرين، ولعلّه يتسامح إذا كان الشجار شخصيا، إلا أنّه لا يتنازل عن عراكه الذي كان ورطة بالنسبة لي. إذا تعلّق الأمر بفطيمة أو بي، كنت أفضّل السّلم وكان يفضّل الثورة، كنت أحب الحوار وكان فتى مميزا في الشجار، كنت أنتمي للمقابر الثلاث في الهدوء، وكان ينتمي لوادي ملاح أو لخارج الحيّ وربما إلى العالم الذي لا أعرفه داخل السجن.

أذكر أوّل أحلام الأمومة عند فطيمة، كنا نقف معا نتأمّل الفُرس البيضاء في سفح الحيّ أمام المدرسة، وكانت الفرس جميلة جدّا، وإلى جانبها مهر فاتن، كانت تبتسم وتحدّق في الأم وولدها، قالت لي :«سأكون

أمّا أيضا»، لا أعرف ما الذي جعلني أشعر بفرح مغمّس بالخوف لحظتها. ربما تحسّست فقدانها، في مدينة كمدينتي لا توجد صداقات بين الذكور والإناث، وفي حيي وبيت الحاج بورقيبة يصبح الوضع مستحيلا، فطيمة حالة خاصّة. بعد عشرين سنة لم تعد أمّا ولا زوجة، صالح البطاطا ما زال تاجر خضر في سوق الجملة، ويعرف القاصي والداني أن بورقيبة هو الذي صنعه من فراغ، أذكر أيامَ كان يتجوّل في الشارع يضع «شمّة» أعلى شاربه ويدوّن اسمه كأحد أبطال الفراغ. السعدي لم يكن مصيره مشابها، لكنه منذ عودته التحق بصورة البطاطا القديمة، كأنه يريد أن يحقّق ما حقّقه هذا المارد، لقد تزوّج بطاطا بأجمل امرأة في العالم، وكان أقلّ وسامة من السّعدي الذي لم يردّ على خطابات معجباته، ولم تنجب هي الطّفل الذي قالت إنها ستمنحه اسمي، كان هذا كفيلاً بإرعابي.

يقول الرائي: تلك المرحلة عمّقت داخلك جرحا وجوديا، ارتبط اسمك بالسعدي وفطيمة في كلّ شيء إلا في المعجبات والمعجبين، كان بوسع فطيمة أن تتحوّل إلى مادة بصرية لجميع الشباب سرّا وعلانية، تلقّت هي العشرات من الرّسائل المكتوبة والشّفهية وعبر الوساطات والموفدين، وكان بوسع السعدي أن يصاب بالعمى أمام نظرات الفتيات طوال سنوات، ويتحجّر قلبه لدموعهن، أما أنت فلم يكتب لك أن تكون معشوقا ولم تتلق إلا رسالة واحدة، كانت الرّسالة شفاهية نقلتها فطيمة عن مليكة، ولدهشتك تحوّلت سريعا إلى عاشق لمليكة، بعد شهر تحوّلت هي إلى عاشقة لمن هو أقوى منك جسدا وحظا، وانتهى الأمر بينك وبين أقلّ فتيات الحيّ جمالا.

في الشجارات التي خضناها مجتمعين تحوّلت فطيمة إلى ذكر في نظراتها وحركاتها، لقد اكتسبت منا الشّرعية الذكورية، لم نكن دائمي

الانتصار، لكننا لم نخرج مذلولين يوما. تنتصر على الدّوام فهي تواجه الأقلّ قوّة بينما نخضعُ نحن لمنطق الأنوثة والذكورة فنواجه الأعنف، لهذا فإنها لم تصب يوما بانتفاخ في عينها، ولم تُدْمَ ساقُها ولا لويت ذراعها وكنا نسارع إليها متى احتاجت إلى مساعدتنا، لاحقا أصرّ عليها السعدي أن تضرب الفتيان بين رجليهم بركبتها، أن تركز على الخصيتين، امتلأ وجهها حياءً وهي تسمع تعليمات السعدي، وكنت أشعر برغبة في ضمّها وكانت عيناها تقولان لي: «لو أنّ صدرك يدسُّ رأسي»، وقلت لها بعينيّ «لو أنّ رأسك يستلقي بصدري». أنا اعتقدت صديقي يريد بهذا الاقتراح أن يلج بها عالما آخر أقلّ براءة. في الشجارات اللاحقة لقاعدة السّعدي الذّهبية أخصت فطيمة كلّ الفتيان، ولكن الحظّ لم يكن معها لتواصل توزيع عقوبتها على الجميع، فآخر فتى ضربته ونقل إلى المستشفى حوّلها إلى وحش جميل. الحاج بورقيبة أغرق في معاقبتها. وكان شعاره «منذ متى تضرب النساء الرّجال؟».

لقد أردنا أن نجعل منها أنثانا معا. لا أحد يحقّ له أن يكون شريكا في. فطيمة، الآن هي أنثى تمتلك نفسها وفقط، وترفض الآخرين مهما كان هؤلاء الآخرون، حتى أنا رفضت أن تنصاع إليّ ومنذ آخر لقاء سأعرف أنه لم تعد هناك فطيمة التي عرفتها منذ سنوات، مكانها في الذاكرة أفضل بكثير من مكانها الآن، ورغم ذلك سأظلّ أتأمّل ملامحها وهي تخرج من نقاب السّنوات، سأبقى أتملّى طريقتها في الحديث وهي تستعيد لسانها بعد سنوات من البكم، سأربط في رأسي بين فطيمة التي كلّمتها منذ ساعات وبين فطيمة التي تسكن الآن الخيال والأحلام، لا اختلاف في الملامح، ما تزال الشّامة أسفل الشّارب تبهرني، وعيونها الشاسعة

كأحلام اليقظة تهجّرني مني إليها، وبياضها وشعرها وحتى طريقة رفعها حاجبيها ذاتها، ما تزال خارجا فطيمة هي فطيمة، لكن الذي كُسر فيها لا يمكن استعادته، الآن هي امرأة بعد الثلاثين تفقد صالح بطاطا، ولا تملك قوّة تحديد مصيرها تجاه السعدي، ويرفضها الحاج بورقيبة ويتوعّدها، كان بورقيبة يذوي بسبب فطيمة، هل تراه مخصيّها الأخير؟ بدأ يتحرّك ثقيلا ورأسه لا يكاد يُرى، وأصهاره الذين تربوا على مذهب إقصاء المرأة مخلصون لمذهبهم، حتى وإن سقط القطب، وهم الآن يفكّرون في إجراءٍ يمنحهم الشرعية ليواصلوا في أمرهم الجلل، لأجل هذا اجتمعت النسوة البورقيبيات المودعات من طرف أزواجهن في مطبخ بيت الحاج بورقيبة، وشعر هو وكأنّ غرباء دخلوا إلى مطبخه، فلم يرفع رأسه ولم يكلّم أحدا وفقد جزءا مهما من بطنه الكبير، وربمّا أصيب بالرّعشة ،كبر.. منذ سجنه في الشهر الماضي وإلى اليوم.. عشرين سنة، صالح بطاطا ازداد اتساعا، وما يزال يتردّد على الشيخ الماحي، ولسان حاله «ما دارتش قيمة لبيها»، انفضّ الجميع من حول الحاج بورقيبة، الوحيد الذي زاره في مرضه الأخير كان القاوري الذي جلس معه لساعات، ثم خرج بعينين حمراوين ليس من الخمر، ولكن من الدّموع التي تبادلها مع دونكيشوته الذي صارع إلى جانبه عشرات المروحات، ألم يكن القاوري تابعا للحاج بورقيبة؟

قالت لي فطيمة إن السعدي أواها طوال الأسبوع ولم يبدر منه ما يؤذيها، كنت أعرف أنه لا يستطيع أن يؤذيها، لكنها هزّت الأرض تحتي عندما حكت كيف تهجّم عليها الليلة الماضية، شعرت أني الفاعل فلم أرفع رأسي في وجهها، في سرعة متعبة تصوّرت لو أنها بقيت عندي لأسبوع، أكنت أفعلُ الأمرَ ذاتَه؟ ترى هل تغير السعدي أم أن العمر هو الذي تقدّم ولم نعد

أطفالا؟ حقدت للمرّة الأولى على صديقي حقدا غير طفولي، ورغبت عن فطيمة، تمنيت أن تخرج وتتركني، أن تموت ويموت السعدي وينتهي الأمر.

يقول الرائي: لم تسعفك أنثاك أن تعودَ إلى الواقع، لم تمدّ لك يدها لترتّب المشاهد، ولم ترحم تيهك وبلاهتك وكلّ الصّفات التي ألصقها بك الجميع، اقتربت منك بين دامعة وراغبة، مسحت بيدها وجهك الرّمادي ومرّرت أصبعها على شفتيك السمراوين بقلم الدخان، أنت تسمّرت بينما كانت بعينها رغبة بالكاد يطلّ منها حبّ أو ذكرى قديمة، اقتربت بشفتيها إليك وأنت ساهم كشجرة في الخريف، لكنها لم تواصل مسارها إلى فمك الفاغر ووسّدت رأسها صدرك بينما كانت يداها تلتفان تحت ذراعيك وتشدّانك إليها، لا تدري كم من الوقت بقيت تعصرك وأنت لا تستجيب، للحظة كنت ستفيق بين شعورين، كنت بصدد الرجوع إلى بشريّتك، شيء ما تحرّك داخلك كأنه شعور على جسر بين الشوق والرغبة، لو آخرت سحب رأسها لثانية، لكنت تجاوبت مع تململها على قامتك المفجوعة، لكنها تأهّبت للخروج كأنها تلغي هذا المشهد أو تعتذر عنه.

عندما همّت بالمغادرة بالملحفة وبوعوينة قالت لي: «السعدي بكى بعد ذلك ولم يعد إلى البيت وخالتي التاقية لا تفهم شيئا». وربّما سألتني ما الذي يمكن أن نفعله الآن لأجل التاقية والسعدي ولأجلنا جميعا، لم أعثر على جواب ولا عثرت على شعور.

شعرت أنّ حكاية السّعدي انتهت، أردت أن أمثّل دور الحزين على فراق أهمّ صديق لي، دون جدوى لم أكن حزينا بل كنت متعبا من صداقته، أردت أن أفتش عن ألم بسبب فطيمة دون جدوى، ربّما وجدت بعض الذكورة تلمع في وجه مرآتي، كان بوسعي أن... لا ليس مع فطيمة.

الآن لا أذكر متى أصبحت صديقا لفطيمة، أذكر يوم جاء السعدي إلى الحيّ واستغرب عندما رآني أتحدّث معها فقاطعني بعدها. عندما ذهبت إلى بيتهم لأصاحبه كالعادة إلى المدرسة رفض أن يذهب معي. قال لخالتي التاقية: «إنه يلعب مع البنات» كانت تهمة كبيرة عليّ في وقتها. ولكن فطيمة ليست بنات، إنها فطيمة يا السّعدي. إنها فطيمة التي تخصّي السّباع كصالح البطاطا...

4- شجرة النّبق المباركة

تورطنا في بعضنا، أنا جريمة السّعدي وهو جريمتي، كان على أحدنا أن يواصل في هذه الأرض وعلى الآخر أن يرحل عنها، سافر هو إلى ليبيا ولم يفقد انتماءه للأرض، ولا رفضه الحيّ رغم أنه لم يعد إلاّ بالجاكيت الجلدي الذي أصبح يمثل أحد عناصر هويته، ولم يقبل بي الحيّ أو يفرط في امتنانه بي، لأنّي بقيت كصخرة بيتنا. لم يرث السّعدي عن والده شيئا. ولا أنا ورثت عن أبي، مع الفارق في الأبوين، فأبي كان رجلا يتعاقد مع المنطق ويتطرّف في أحكام عقله. ووالده كان خارقا يعيش في عالمنا منحة للبسطاء، فهو رجل يدير الأشياء، ولديه سلطان على محيطه، ورغم ذلك يكفُّ عنا أذيّته.. كان السّعدي يتحرّج من والده، كلّما طلب منه أن يحضر وليه في المدرسة أصيب بانهيار، لم تعجبه يوما طريقة لبس المالك الحزين ولا طريقة كلامه مع المعلمين، أبي كان يكفل أمره في كثير من الأحيان عندما يقتضي الأمر ذلك، أما المالك الحزين فإنّه اكتفى في كلّ مرّة حضر فيها إلى المدرسة بطلب الجديّة والحزم من المعلمين الذين لم يقصّروا في ذلك، انتقلنا سريعا من سنة إلى أخرى، كأنّ السنوات الجميلة تتساقط تباعا.

كنا نجباء رغم أننا لم نتخلّص من الصّعلكة في أطراف المدينة. صرنا نعرف كلّ المفارغ العمومية قبل العاشرة. ونعرف كلّ الأماكن التي تحوي شجر النبق الذي تحوّل إلى غذاء يومي لنا، أصبحت أنا والسّعدي ماهرين في الحصول على النبق، ولعلّ لعنة الشّجرة المباركة أصابت فطيمة التي أعرضت دائما عن النبق واعتقدت أنها بذور وليست فواكه. أما أنا والسّعدي فقد كان طعم النبق هو السّحر الذي يتوّج جلساتنا وجولاتنا الدّائمة، «لو

أنّ أحدهم وضع عدادا في رجليك لانفجر العداد من كثرة تسكعك» هذا ما قاله لي سي المصّفى عندما التقاني وسط المدينة أبيع النبق، ركلني وضرب النبق الذي تناثر قبل أن أبيع منه الخرطوم الأوّل. بعدها أصابه مرض أتى على بشرته. فالذي يعرفه سابقا لن يعرفه اليوم، البرص الذي أتى عليه كان بسبب لعنة النبق الذي ركله فتناثر على الأرض، كان الشّيخ المصّفى يقدّس الخبز، إذا صادف أن وجده في الطّريق يحمله، يقبّله ويمرّره على جبهته، لم أفهم لمَ كان يفعل ذلك، ثمّ يضعه على جانب الطّريق؟! ربما كان حريّا به أن يحمله ويسلّمه لأحد مربي الماعز الذين اندثروا، فلم تعد رائحة الماعز تزكّم الأنوف كل مساء وصباح. كانت جولات قطعان «الحيح» أو كما كانت تسمّى مثيرة حقا، كان ثغاء الماعز أقرب إلى البكاء، وكانت تمرّ جريا أمام بيتنا وتتوزّع تلقائيا على البيوت، أدهشني ذلك في تلك الفترة وشعرت أنّنا نتقاطع مع كلّ الحيوانات. كان الماعز يأكل معي النبق. فكنت أفرغ جيبي أمامه، الجَدّي الذي كبر على حبات النبق وتحوّل من جدي أبيض إلى جدي أسود وأبيض، اختفى بعد أن تعلّقت به، اعتقدت دائما أنّه سكن في مكان ما ببركات النبق، أما أنا فواصلت بيع النبق حتى أوجدت مدمنين عليه، كنت أتصوّر أنني الوحيد الذي يتاجر في النبق لأنّ السّعدي أعرض عن الاتجار فيه، لكنّه لم يتوقّف عن تعاطيه، فجأة انتشر الأطفال الذين يبيعون النبق وتحوّل اكتشافي إلى فكرة مستباحة من الجميع، بدأت أشكّ في بركات النبق لولا أنّ الشّيخ الصّادق الماحي اشترى مني حفنة رفض أن أضعها في الخرطوم الورقيّ، ووقف مع مرافقه يتحدّث عن النبق وبركاته فشعرت أنّ تعلّقي بهذه الشّجرة التي تقاوم الخريف في مدينة الخريف لم يكن خطأ، قال الشيخ الماحي: «جاء في كتاب الآداب

الشرعية في حكم التداوي مع التوكل على الله، في خواص النبق وهو ثمر السدر، أن النبق بسكون الباء وتشديد النون وتخفيف القاف، والواحدة نبقة ونبق ونبقات مثل كلمة وكلم وكلمات، والنبق بارد يابس وبرده أقلّ من برد الرطب وفيه تجفيف وتلطيف وهو قابض يقوّي المعدة، وخاصة إذا قلي ودق مع نواه، وقيل: النبق رطب، وقيل: رطبه رطب ودفع مضرته بالشهد وغذاء الناس من النبق يسير والنبق يسكن الصّفراء ويشهي الطّعام ويولد بلغما وهو بطيء الهضم، وورقه وهو السدر معتدل مجفف قابض لطيف يقوّي الشعر، ويمنع من انتشاره وينضج الأورام وفيه تحليل، والطري منه مع الخل ينفع من تقشير الجلد وطريه أيضا يلصق الجراحات ويقوي العظام الواهنة الواهية إذا ضمدت به».

ابتهجت وتملّكتني ثقة لا حدود لها، أنا الذي أدخل النبق إلى الحيّ، كان الجميع يعرفونه ولكنهم لم يفكروا يوما في إحضاره، السّعدي كان يقول لي إن أمّه نهته عن أكل النبق، وكنت أكذب عليه فأقول له إن أمي نصحتني أن أفعل، لما له من فوائد. بعد تلك الحكاية التي سمعتها من الشيخ الماحي لم أعد أعبأ بأحد، أمي طاردت النبق في كلّ مكان، لكنها فشلت في اجتثاث الفكرة النبقية من رأسي، كانت جيوبي مخازن نبق، محفظتي منبقتي، ودرج الطاولة في المدرسة ممتلئ بنواته.

يقول الرائي: كنتَ مهووسا بالأشجار، في حيّك الفارغ من كلّ الأشجار، حيث يربي الناس أشجارَهم في البيوت خفية كأنها نساء، لم تعرف إلا شجرة العنب في بيت جدّك، كانت شجرة عجيبة ترسم خرائطها في السّماء، في الصيف يحلو لك أن تستلقي في وسط فناء بيت جدّك وتتأمل تعرّجاتها، أما العراجين التي تتدلّى منها فلم تكن دهشة بالنسبة لك، كنت تقارن بين أغصانها العجوزة وتستنتج لها وجها فيتقاطع مع وجه

جدّك، اللّون الأخضر كان أكثر من ساحر لك، وورقات العنب التي ترتسم في ذهنك أحيانا كآذان الفيَلة دفعتْك للاعتقاد أن كلّ الكائنات من أصل واحد: جدّك، الفيل، شجرة العنب، مالك الحزين، الكبش بوقرون المسكين، عمتك وفطيمة أيضا، هوسك بالنبات والأشجار ازداد اتساعا في مقبرة النصارى التي يقوم عليها جدّك، كان يفترض في جدّك أن ينظّفها ويحرس موتاها، لكنه اجتهد ليحوّل جزءا كبيرا منها لم يتح للنصارى أن يرقدوا به إلى مزرعة، هناك حيث زرع النعناع والبطاطا والجزر والخصّ وخصّ اليقطين بالمساحة الأكبر، تحوّل عمل جدّك إلى استثمار يشهد نجاحه الموتى، كانت مزرعة مقبرة النّصارى تلك محاطة بشجر صنوبر مسنّ، يشكّل مأوى للعصافير التي لا تكفّ زقزقتها حتّى في اللّيل؟ أحببت أنت تلك المقبرة لكنّها كانت ممنوعة عن رفيقيك، فلم يتأت لك ارتيادها دائما، وبقي ينقص كمالها وجمالها شجرة مقدسة واحدة، وهو ما سعيت إليه عندما زرعت نواة نبق اعتنى بها فمك لتصبح ملساء، انتظرت أن ترى شجرتك تنمو دون جدوى، خلال أيام من زياراتك المتكرّرة للمقبرة وسقيك النواة لم تشهد أية حركة، كنت مضطربا لأنّ مزرعة جدّك لا تتعاطى مع نواتك المقدسة التي تنتظر منها شجرة فارعة تعانق هذه الصّنوبرات الهرمة.

في ذلك الصّباح كان المعلم يشرح الدّرس وأنا منهمك بالحَبّ المبارك ألوكه بشغف، انتبه المعلم وانتبهت أنه قد تفطن لفمي، قال لي: «ضرك نجي نكسر لك هذاك القجير» يقصد أنّ فمي دولابا، وتصوّرت أنه سيصاب بالشّلل حالا لأنه يتطاول على حالتي النبقية، لكنه وصل دون أن يحصل له شيء، أمسكني من أذنيّ ورفعني ولم تنزل به اللّعنة، ركلني وطلب أن أقف على المصطبة ولم يفقد رأسه، فتّش الدّرج فأخرج رطلا أو أكثر من النواة،

وفتّش المحفظة فعثر على كميّة كبيرة من النبق، لا مكروه حلّ بالمعلّم، أيّة شجرة أكثر بركة تقف إلى جانبه وتهزم نبقي؟! فكّرت لو أنّ الشيخ الماحي يحضر ليحدثني عن شجرة المعلّم، أليس لكلّ منا شجرته، أبي علّق شجرته في قلب الصّالون، من جدّي إلى غاية عليّ بن أبي طالب، وأمّي انتمت إلى شجرة أبي، وجدّي لديه شجرة عنب وغابة صنوبر، والسّعدي مخلص للنبق مثلي وفطيمة لا شجرة لها، لهذا فقد تعرّضت لعقوبة قاسية من شقيقها الأكبر بعدما رفضت أن تحضر له النبق من عندي ورفضت أنا أن أمنحه الحبوب العجيبة مجانا، لم أحبّ يوما أخويّ فطيمة ،كان لزهر أصغر مني وكنت أستطيع أن أؤدبه وأطوّعه متى أردت، إلا أن فريد الذي يكبرنا جميعا ويزن ضعفنا جميعا، كان أكبر من أن أفكّر في هزيمته، ليس في مواجهته أصلا، أصبح فريد سيّدا في سرعة البرق، الجميع يعاملونه كرجل ويقود سيارة والده البيجو القديمة ذات العدادات الثلاث متباهيا على الجميع، لم تكن السيارة متاحة للكثيرين، أمّي اكتفت بالحديث عن سيارة خالهان في كلّ مرّة التقت بالنسوة من الجارات، لتتحوّل الجلسة إلى استعراض للأقارب الذين يملكون السيّارات، في أحسن الأحوال لن تجد واحدة من بائسات الحيّ أكثر من قريبين أو ثلاث يملكون سيارات، وينتمون إلى عالم الأحياء خارج محيط المقبرات الثلاث والسجن، كنت أشتري ودّ فريد بالنبق، وكنت أتمنّى أن يصمت عن العلاقة التي تربطني أنا والسّعدي بفطيمة، وكان يبدو غير مبال بالأمر، لكنني رفضت أن يأخذ النبق دون إذني، ويبدو أنّه كان أيضا قد أدمن والتحق بالشبكة التي كونتها من مدمنين.

كان المعلم يعرف جيدا أني لن أسقط في أي امتحان إلا في الرياضيات، لهذا فإنه تجاهل الدّرس وراح يحرجني بالأرقام التي تصيبني بالتصلّب

والدوار، لن أبكي.. قلتُ في سرّي وهو منهال عليّ بالضّرب في ظهري، «لم يحصل له أيّ مكروه» واقتنعت أنّ بركات النبق لا تخدم دائما، أو أنها لا تصيب الجميع، ربما كان المعلم على علاقة بالمالك الحزين الذي وهبه حرزا ضدّ نبقي، يوما ما سأقتلع الحرز من رقبته وأتركه لقدره الذي لن يرحمه، يوما ما سأجعله يندم على هذه العقوبة، سآخذه إلى طريق النبق وأربطه إلى شجرة النبق، لم أكن أسمع كلام المعلم ولا صوت دويّ كفّه وهي تنزل على ظهري. حسبتني قلت سرّا «وضرك واش ندير فيك يا واحد الرخيص؟»، لكنني قلتها علنا وسمعها، العبارة كانت نشازا في المشهد، فأنا تحت العصا وأتحدّث وكأني أمسكها. تأزّم الوضع أكثر ولو طلب مني أن ألعن النبق لفعلت، اشتدّت كفّه واتسع مداها في ظهري، أردت أن أرفع رأسي ليرى وجهي فيرحمني، لم أكد أفعل حتى صفعني، التصقت بالسبورة السوداء وشعرت بألم كبير، صديقي السعدي لم يتحمّل الأمر فبكى، عندما فرغ مني وجد السعدي ينظر إليه بحقد فعاقبه ولم أبك، تلك كانت مهمّة فطيمة بامتياز. والسعدي في بعض الأحيان.

قال الرائي: رغم أنّك خبت في الشّجرة المباركة إلا أنّك لم تحقد عليها. ولم يتزعزع إيمانك بها، أمضيت الوقت تعطف على شجرتك كأنّك تشفق عليها وهي تفشل في حمايتك، كأنّك أردت أن تقول: لها لا عليك فأنا لا أشكّ فيك، قلّلت التهام النبق في البداية، لكنك خشيت أن تفهمك الشجرة على نحو مختلف، فضاعفت نصيبك، كنت تزور في مرات متقطّعة مزرعة المقبرة المسيحية وأنت فاقد الأمل، في آخر مرّة رأيت وكأنّ شيئا ما تحرّك في ..كان زرعك النواة فأسرعت إلى الماء، أراد جدّك أن يمنعك من سقي النبات بعد أن فعل، لكنك لم تسمع كلامه ورويت نبتتك التي تغمز من تحت سواد التراب، لكنك في اليوم الموالي لم تعثر على شيء، إحساس

ما دفعك للشكّ بجدّك ثمّ بالنبات المحيط بها، ثمّ شككت في الصنوبر الهرم، لكنك خرجت حزينا وفقط، ذهبت إلى شارع تصطف فيه أشجار النبق في هدوء، وارتقيت إحداها وبكيت، بكيت بحزن وخيبة كبيرين.

مرّة قرّرنا أن نعاقب الوافد الجديد على قسمنا، كان عمر عملاقا قياسا بسننا وبمجرّد دخوله إلى القسم مرفوقا بالمدير اعتقدنا أنّه سيعذّبنا، نزلت في قلوبنا رهبة نحوه، اتفق أبناء القسم على تلقينه درسا يجعله يغادر القسم، أو يتوب عن ضخامته فينخرط في صغرنا، خرجنا نجري نحوه لنطيح به، فجأة تفرّق الجميع ولم يبق إلاّ ثلاثتنا، ولست أعلم لماذا استلقيت عند رجليه وأمسكت بهما ولم أرفع رأسي، لكنني شعرت به وهو يعبث بي، مسح بي التراب الذي كان يملأ المكان في غياب الأرصفة والطّرق المعبدة في حينّا الشّعبي، ولم يفلح السّعدي في انتزاعي منه فنالته ضربات قاسية، أمّا فطيمة فقد حصلت على نصيبها من الرّعب، لم أرفع رأسي ولم أطلق قدميه، وبقيت على تلك الحالة إلى أن خرج المعلمون وأنقذوني من قبضة المارد، بعدها تعرّض إلى عقاب شديد لأنّه اعتدى عليّ، وببركات النبق كنت مُعتدياً، فأصبحتُ معتدىً عليّ، أمّي صرخت عندما رأتني، دمت لحيتي من احتكاكي على الأرض، وتمزّق سروالي على ركبتيّ الجريحتين، لكنّ أبي أكّد لها لاحقا أنّ الفاعل قد عوقب، عمر أصبح سريعا صديقا للجميع، كان طيبا جدّا وخدوما والأغرب أنّه سريع الحياء، وكثير البكاء، كان يضع حرزا في رقبته، وكان السّعدي لديه حرز يحميه، وحتى المعلم لن أصدق أنّه أفلت من النبق دون حرز يطوّق رقبته، طالما رغبت في حرز يتضامن مع النبق فأصبح في حماية تامة، أبي وأمّي كانا يرفضان الأمر ويتعوذّان منه، أمّا أنا فقد قرّرت أن أحصل لي على حرز من حروز المالك

الحزين، السّعدي سهل لي المهمة وتكفّل بمدّي بالحرز وأنا ربطته في عنقي، كانت سرقة الحرز أمرٌ في غاية الصّعوبة، ففي بيت المالك الحزين لن تعرف كم عيناً تنظر إليك، وكائناته قد تخبره بما اقترفنا، علّقت الحرز لأشهر دون أن يكتشفه أحد. كنت أدخل مرحاض البيت مساء فأزرعه بأحد شقوق الجدران المهترئة، وأعود في الصّباح لألتقطه، نجح أمر الحرز، ففي الحروب التي كنّا نخوضها خرجت منتصرا، كان شهر رمضان شهر المعارك الكبرى في التّاريخ الإسلامي، لهذا سننزل إلى «البلاد»، ونقصد بالبلاد وسط المدينة، نتجوّل في السّوق المغطاة، وندخل دوامة السّوق الدّائرية من جهة لنخرج من الجهة الأخرى، وغالبا ما نتصادم مع أطفال «القرابة» و«الضاية» الأشداء، أطفال «باب الشارف» و«عين أسرار» و«عين الشيح» كانوا أرحم، وقتها لم تكن المدينة بهذا الاتساع، وكان بوسعي أن ألتقي مع أعداء الطّفولة ونتحوّل إلى أصدقاء سريعا، اقتنيت في رمضان الذي حماني فيه الحرز والنّبق معا «ميتشاكو»، ولقّنت الكثيرين دروسا قاسية، لا أحد يجرؤ على الاقتراب مني وأنا أدير الميتشاكو الخطير، السّعدي كان يحمل حزاما جلديّا، وفطيمة كانت محرومة من التجوّل معنا ليلا، لهذا فإنها بدأت تكتشف الجلسات الأنثوية. غير أنها لم تفلح في ذلك، لهذا قرّرت أن تهجر البنات بعد شجارات انتصرت فيها، كانت جولاتنا تلك تعدّ رحلات طويلة لكننا خرجنا في رحلات أطول لاحقا، وصلنا إلى قرى بعيدة عن الجلفة غير مرّة، كنّا نعود فننال عقابا قاسيا لكننا لا نفتأ نعيد الكرّة.

يقول الرائي: بالنّسبة لك كان انتصارك على عمر العملاق من دعم النبق، لهذا فقد جريت.. بعد معركتك تلك ونتائجها التي غيرت خارطة القسم وولاءات التلاميذ.. إلى مقبرة المسيحيين، وأردت أن تحفر لترى

إن كانت النواة في مكانها أم هربت؟ كنت تريد أن تجد مخرجا عجيبا لنواتك، فتمثلت نبتة بالجوار وادّعيت أنها نواتك وبدل أن تحفر بحثا عن النواة قرّرت أن تسقي تلك النبتة، بعد أيام من السّقي اتضح لك أن النبتة من ذوي جدّك وليست نواتك، لقد كان بوسعك أن تفعل أي شيء لترى شجرة نبق تنمو هناك، اعتقدت أن تلك المساحة ملك لجدّك ما دام يزرع فيها ما يشاء ويحكم فيها على الموتى كيفما شاء، وأردت أن ترثها لتحوّلها إلى عالم نبقيّ واسع. عندما تأكّد لك أنّ شجرتك لن تطلع بدأت تفتش عن نواتك، حفرت قليلا ثم توقّفت وقد لمعت في ذهنك صورة لميِّتٍ يبتلعُ النواة ويريد أخرى، أردت أن تهرب، لكنك تذكّرت أن النبق يحميك، وصنوبر ونبات جدّك أيضا لن يخذلك، هل يأكل من هذا الشجر والنبات الميتون؟ أم هل يتعذّى هو بعظام الموتى؟ كان هذا السؤال يقفز إلى رأسك، وأنت تحفر دون أن تعثر على نبتتك فتُوهم نفسَك كلّ مرّة أنها في مكان آخر، اتّسعت الحفرة وضاعت النواة، تمنيت لو أن أحدهم يضع نواة وتعتقد أنت أنها نواتك.. لن تصبح لك شجرة في مقبرة النصارى الأكثر خضرة وفخامة، ولا في مقبرة المسلمين التي تدعى «الجبانة الخضراء» ولا في مقبرة اليهود. ستواصل بلا شجرة قريبة فقط بإيمان بلا مصدر حقيقي.

لم أنس النبق إلا يوم أصبت بمغص شديد وهزلت، نقلني أبي إلى الطّبيب وأنا أتعذّب ألما، فأكّد له أنّ الطّفل يعاني من تسّمم، واكتشف أبي أن أسطورة النبق هي السّبب، ولم أتنازل عن «الحِجاب» أو «الحرز» بسهولة، فقد فتحه أبي أمامي وهو يسخر من قدرات المالك الحزين، بينما أغمضت عينيّ بكفيّ حتى لا أرى عصف «هؤلاء» بأبي، لكنّ شيئا لم يحصل، كانت ورقة كراس مدرسيّ، كُتبت عليها من جهةٍ خطوطٌ أفقيةٌ وعمودية،

وبعض الطّلاسم التي لم يفهمها أبي ولا أمي من الجهة الأخرى. كان خطّ السعدي واضحا، انتهى عهد النبق وعهد الحرز. وانتهت أسطورتي.. الآن لن يجدي الميتشاكو، لهذا وهبته لأحد أبناء الحيّ.

كان المالك الحزين يدخّن «الأفراز» ذا العلبة الخضراء، وكان السعدي قد سرق علبة وخبّأها بجبانة اليهود، ودعاني إلى اكتشاف الأمر. دخلنا أنا وفطيمة والسعدي إلى المقبرة، أخرج العلبة من تحت أحد القبور الحجرية، فتحها وأخذ سيجارة وأشعلها من علبة الكبريت التي بجيبه، أخذ نفسا ونفخها علينا، وانفجرنا ضحكا ثم استغرق هو في أخذ الأنفاس ونحن في الضّحك، عرض عليّ الأمر فالتفتّ إن كان أحد يرانا، ما من أحد سوى اليهود الموتى، أخذت نفسا وضحكنا بعمق مرّة أخرى، فطيمة لم تنتظر أن تأخذ نفسا، التقطت سيجارة جديدة بيضاء كطبشور وأشعلتها، هكذا بدأنا نعتقد أنّنا مدخّنون، كنا نأتي مرّة أو مرتين في اليوم لندخّن وأحيانا مرّة واحدة في الأسبوع على حسب ما اتفق لنا، ثم نملأ أفواهنا باللّبان الذي يأتي على رائحة الدّخان، فإن لم نحصل على اللبان أجّلنا التدخين، اكتشف المالك الحزين سرقة السعدي لعلب الأفراز فعاقبه، ولكن السّعدي وشى بي لهذا فقد تعرّضت إلى عقوبة أقسى من والدي الذي وضعني تحت رقابة شديدة لعدّة أيّام، وحرمنا من اللّعب والتسكّع مع بعض، فطيمة لم تكن معنية لأنّ السّعدي لم يذكر اسمها، نحن ذكران، إذن نتحمّل الوزر عنها، ولعلها دخنت في غيابنا بعض السجائر.

بعد أن زال الحصار عدنا إلى المقبرة ودخّنا مرّة أو مرّتين تدخين أطفال قبل أن ننقطع عن التدخين، مرّة ذهبت رفقة أمّي إلى بيت خالها، فشعرت أني أقلّ شأنا من أبنائه الذين يلبسون ألبسة ملونة، بينما لم نكن نعرف إلا

الأسود والأزرق. كنا ننتمي إلى حيّ لا يعترف بالألوان ويتطرّف في حزنه حتى في الأفراح، كان سكان «صون ميزان» ينتمون إلى المقابر، أقلّ شأنا من سكان الأحياء الجديدة ومن سكان حيّ «بال امبراج» أين يسكن خالها الغنيّ، أخرجتني زوجته مع أطفالها إلى الشّرفة الفسيحة فبدوت غريبا. لا أدري أيّة فكرة صعدت لرأسي دفعتني إلى التقاط علبة سجائر خال أمي الموضوعة في إحدى النوافذ، أشعلت سيجارة وجلست على كرسيّ. استغربَ الأطفال فعلتي واندفعوا في وشاية جماعية، في سرعة البرق، وقف خال أمّي يحدّق فيّ، أمّا أنا فلم أملك القدرة على رمي السّيجارة التي التصقت بين سبابتي ووسطايا، وقفت رازحا تحت نظرات الجميع وأنا أشعر باقتراب أمّي، ركلني الرّجل، وانطلقت مسرعا إلى الخارج، رميت السّيجارة بعد أن أخذت نفسا أمام باب البيت، وغادرت إلى مقبرة اليهود أفتّش عن بقايا سيجارة، لم أجد أيّ عقب أعيد إشعاله.

في المنزل كان أبي يتوعّدني، وكنت مستعدا لعقوبته، لن أعلّق حرزا، ولن أعبّئَ جيوبي بالنبق، ولن أتظاهر بالندم ولا بالمرض، كلّ الحيل ماتت وليس أمامي سوى الاستسلام في هذه المعركة التي هجرني فيها الجميع، ولا يقف إلى جانبي أحد. لو أنّ السعدي وفطيمة معي، إذن لخرجت منتصرا، دخلت البيت وذهبت إلى أبي مباشرة، حمل الحزام الجلديّ، أصابني الرّعب أغمضت عينيّ، لم تسقط الجلدة الأولى بعد، كلّما تأخّرت كلّما رفعت يدي لأغطي رأسي، عينيّ مغمضتان، ولا جلدة تدخلني إلى عذابي، لن يبدأ الآن إنّه ينتظر أن أفتح عينيّ، وأنا أخشى أن أفعل، هذا التأخّر يعذّبني أكثر، يد أبي تشدّني سيبدأ الآن، أتكمّش لأتحاشى الألم ولأكون أكثر صلابة، لم يضربني بعد، «إدريس افتح عينيك واخزر هنا».

تحدّث معي أبي وسعى إلى إفهامي الخطأ من الصّواب، يومها أحببته أكثر من أيّ وقت مضى، أكثر من شجرة النبق ومن السعدي، تمنيت لو أني أكبر سريعا لنصبح أكثر من أب وابنه، طلب مني أن أهتم بدروسي، حاولت ... لكنّني لم أنجح.

صادفت البعض يبيعون البلوط، فكّرت في اعتناق البلوط للفترة القادمة لكنني لم أفعل، يكفي الفكر النبقي وما تلاه.

5- في جبانة اليهود

جلست في مقبرة اليهود أتأمّل المكان. هنا كنّا نمضي بعض الوقت على قبور مكتوبة بالعبرية. كان السّعدي قدّس الله سرّهُ، يقرأ ما كُتب على القبور في سنّه المبكرّة، ولكن من خياله الفسيح، كثيرا ما أكّد أن المكتوب هو طلاسم سحر وتعاويذ استحضار الجنّ، أرعبنا غير مرّة وهو يقلب عينيه إلى البياض أو يدور ليقلب جفنيه فتظهر حمرتهما، فطيمة كانت تصرخ وتحتمي بي وأنا كنت أدفع البول الذي يهجم عليّ فجأة من شدّة خوفي. فيصبح الخوف خوفين. من التلبّس الذي أصاب السّعدي ومن التبوّل، وسرعان ما يعود ابن الملك إلى طبيعته ونضحك جميعا من حيله. ورغم أنها مجرّد حيل إلا أن الرّعب كان يتكرّر في كلّ مرّة بالحدّة ذاتها، عندما ينجح في سحبنا إلى عوالم الملك الحزين التي جاء منها.

لم أفهم يوما أن ما كُتب على القبور كان حروفا عبرية، وأنا لم أر يوما يهوديا. ولست أفهم لم دفنوا أناسا من غير هذه المدينة هنا، عندما مات المالك الحزين قاموا بإعادته إلى مسقط رأسه بدار الشّيوخ، حتى موتى القرى والمدن المجاورة يعودون إلى ترابهم الأوّل، رغم ما أمضوه من عمر في الجلفة، لمَ قد يحضرون جثة يهودي من موطنه إلى الجلفة، ولكن أيّ موطن يتّخذ اليهود؟

كانت مقبرة اليهود المحاذية لوادي ملاح إحدى أبرز المحطّات في طفولتي، بابها ظلّ مقفلا لسنوات ولكننا كنا نتسرّب إليها عبر ثقب خلفيّ، الآن زال الثقب لهذا تسلقت الجدار، السّكون الذي عمّ المكان لم يوح لي باستحضار الكائنات الملكية ولا بالخوف، لم أكن خائفا وأنا أدخل

مسرح موتى اليهود وأنا قادم من مسرح جريمتي، ولم أستقرّ على أيّ شعور محدّد، فقط أتساءل إلى أين مضت فطيمة؟ خرجت قبل أن ينهار السّعدي، خالتي التاقية تكون قد صرخت عندما وجدت ابنها ملقيا على الأرض، لا بدّ وأن الكائنات الماورائية التي تسبح في مملكة الحزن أخبرتها كيف فررتُ مرعوبا.

يقول الرائي: فررت مرتين من بيت المالك الحزين، مرّة عندما كنت تبحث عن السعدي ولم تعثر على أحد في البيت سوى الزهرة، ما الذي فعلته يومها؟ قالت لك أنا وحدي، قلت لها عندما يأتي السعدي قولي له أن... ثمّ رحت تتأمّل صدرها الأبيض، كانت تستعدّ لتذهب عروسا ولكنّها بادلتك نظرة جريئة، قوّة ما دفعتك لتدخل وتغلق الباب خلفك، أما هي فكانت كفتاة تتنازعها رغبة وخوف، قالت لك «ليس هنا يا إدريس» ولم تدفعك، وقلت لها «لن أطيل يا الزهرة»، كان يكفي أن تحتكّ بها قليلا لتشعر بدفء يتضاعف بسرعة، فيحرق كلّ الخطّة، أنسابت شهوتك سريعا وخرجت لا تعرف أيّ درب تسلك، لم تلق بعدها الزّهرة ولكنك كنت ترى أبناءها تباعا، كأنها وزوجها يسابقون الزمن فينجبون في كلّ سنة طفلا، ستظلّ تلك الواقعة تثير فيك الكثير من الخيبة والتذمّر، وستبقى ذاكرتك تحتفظ بأنفاس الزّهرة السريعة ورائحة وشكل عنقها الأبيض، وكلّما أغمضت عينك رأيتها مادة تكفل إثارتك، مرّة تشعر بالذّنب وأخرى بالتحفّز.

عندما طعنتُه في قلبه فتح عينيه كأنّه سيبتلعني بهما، اكتشفت أنهما لم تفقدا بعد اخضرارهما رغم أني توقّعت أنهما انزاحا إلى البُنّيّ، كنت على خطأ، أمسكني من كتفيّ حتى حسبته سيخلعهما، ووضع رأسه بقوة على خدّي، شعرتُ بشفتيه تفعل شيئا أسفل أذني اليسرى، لا أعلم إن كان يريد

تقبيلي أو إخباري بشيء، تسحّب على قامتي التي بدت أطول مما كانت، واستلقى على الأرض بعين فقدت خضرتها واستسلمت لظلال الموت، تقلّب على الأرض وأشعرني أنّه بوسعه التكلّم لكنه لن يقول شيئا الآن، متى سيتحدّث إذن؟ العقل مسألة فيها شكّ، والقلب بقايا رماد.

تلمّست عند قبر اليهودي الكبير فلم أعثر على أثر سجائرنا، كنا نسمّيه اليهودي الكبير لأنه أكبر من باقي القبور ولأنّ موقعه أهمّ المواقع، أنا لم أر يهوديا في حياتي، ولا أعرف ما الاختلاف بيننا وبينهم، أبي يعرفهم جيدا وجدّي وعمّتي، جميعهم يملكون حكايات طويلة عن اليهود، رغم أنّهم لم يسكنوا حيّنا قطّ، كلّ ما أعرفُه أنّ الأب عبد الرّحمن القسّ المسيحي الوحيد بالمدينة كان بالنسبة لي يهوديا، فلا فرق بين الديانتين في ذهن أطفال «صون ميزان» سوى في الدّفن، في طفولتي قال لي السّعدي رحمه الله وعطّر ذكره: إنّ اليهود معروفون بنتانتهم التي تفوح منهم مهما اغتسلوا، ولأنّ الفكرة استقرت برأسي فقد سعيت لأشمّ الأب عبد الرحمن أكثر من مرّة، لكنّ رائحته كانت طيبة، لهذا فقد انتفت يهوديته عندي، غير أنّ رائحة فريد شقيق فطيمة العفنة جعلتني أتأكّد أنّه يهودي، فطيمة لم تقبل أن أقول بأنّ شقيقها يهودي رغم أني أعفيتها من ذلك، وتشاجرنا وتخاصمنا لأيّام، كدت أضربها لأنها تطاولت عليّ، لكنّ السعدي منعني وذكّرني أنها أنثى «تضرب امرأة أنت مش راجل أنت».

يقول الرائي: أعجب جانب من اليهود، الخرافة التي تدور بذكرهم راقتك، تصوّرت أنهم يشبهونك في أمر ما، لكنك تردّدت في التعبير عن ذلك، جدّك كان يعلق عن اليهود بأبناء العم «بني عمك اليهود والله ما يخلوك تنوض» أبناء عمك اليهود لن يتركوك تستيقظ، هذا جعلك تعتقد أنّ الكابوس الذي ظللت تقاومه من اقترافهم، لكن كابوس قتل نيوتن

سيتراجع منذ حادثة السّعدي، وسوف يصبح حلما هادئا، كلّ ليلة تلتقي نيوتن متكئا على شجرته، تسقط تفاحة من الشجرة المقابلة، يلتقطها ويأخذ نصيبه من الدّنيا. أمّا أنت فكنت تعتقد أنهم من حيّ ديار الشمس في بلاد اليهود البعيدة، ولم تكن تأخذ نصيبك من الدنيا لا في الأحلام ولا في الكوابيس.

عندما دخلت إلى بيتنا خالتي التاقية ذلك اليوم شعرت أنّ أمرا سيحدث، لم تكن التاقية تزورنا، ولعلّها لم تدخل بيتنا إلا في مناسبتين أو ثلاث من بينها يوم ختانتي المتأخرة جدّا.

يقول الرائي: لسبب ما ستكون الطّفل الوحيد في الحيّ الذي يُختّن بعد السّادسة، ذلك الأمر شكّل عقدة إضافية لك، كنت طويلا مقارنة بمن ختنوا ذلك الصّيف، كانوا أطفالا وكنت متمدرسا في السنة الأولى، كانوا بوجوه جميلة وكنت بوجه مشدوه، ولسوء حظّك لم تكن ختانتك حفلا مقتصرا على عائلتك، فقد حضر الجيران وأهل الحيّ ليشهدوا ما بدا لك فضيحة، وساهم كلّ منهم بقسط في إيداعك في هوّة من الألم، السعدي الذي كان مختنا منذ سنوات كأنّه رجل لم يحضر الحفل ولم يظهر، خشي على مظهره وهو يصاحب طفلا لتوّه يلقى ترسيمه في عالم الذكورة. استغرق ألمك أياما أكثر مما ينبغي، شفي الأطفال المختنون وخرجوا إلى الشّارع وما تزال أنت في «قندورتك البيضاء» تتجوّل في البيت رافضا فكرة الخروج، جمعت من النقود ما لم تحلم به طوال عمرك، ولكنك لم تشعر بالفرح، انقطعت عن السعدي وفطيمة لوقت لا تقدره لأنه تجاوز العمر، مرّة عندما جاءت فطيمة كانت تنظر إلى مكان العملية علّها تجد تفسيرا لما حصل لك، وجعلك هذا فريسة لكلّ الحرج الممكن فانصرفت

إلى غرفتك، كلّ ذلك الحرج سيزول تدريجيا فبعد سنة واحدة كنت تنافس السّعدي في مسابقة البول، بينما تديران ظهريكما لفطيمة كي لا ترى شيئا، واعتقدت أن ختانتك أفضل من تلك التي حظي بها السعدي، رغم ذلك إلا أنّه كان بوالا كبيرا فلم تصل إلى مداه أبدا، لم يبق من ذلك الحدث التاريخي بالنسبة للحيّ والعائلة ولك إلا مشهد أمّك، وهي تقف داخل إناء ماء بارد بوجه مرعوب أصفر، كانت تخشى عليك، وكنت تريد أن يزول هذا الكابوس المتأخر وتعانقها، بالنسبة لشقيقك الذي سيولد لن تكون هناك تجربة قاسية فقد تمت ختانته في الأسبوع الأول لمولده.

قالت خالتي التاقية إنّ السّعدي ينتظرك في البيت، لم أجد سببا يدفعني لسؤالها أو رفض دعوته، تركتها مع أمّي وحثثت الخطى إلى بيت مالك الحزين أسفل الشّارع، كنت أهمّ بقرع الباب لكنّه كان مشرّعا، ناديت عليه ولم يردّ، دخلت إلى البيت وكنت أسمعه يتكلّم وأسمع صوت فطيمة، لن تكون هذه كائنات مملكة الحزن قد تلبّست بصديقيّ، اقتربت من الهمهمة التي تشبه حوار عتاب بين اثنين لا يستطيعان الصّراخ.

عندما استعاد الحيّ هدوءه وظلامه قفزت خارج نطاق موتى اليهود إلى موت الحيّ، ذهبت إلى بيت عمّتي كلثوم آخر النساء اللائي يتجوّلن بالملحفة وبوعوينة دون أن تكون فارّة من كبش ما، احتفت كثيرا بي، وبحدسها قالت لي إنّك خائف، وشرعت تحضّر لي الحلبة وطلبت منّي أن أظل عندها لأسبوع أو اثنين حتى أشفى، وهي لا تكفّ عن ترديد منافع الحلبة وكيف أنقذت صليحة عندما كانت صغيرة، صليحة كانت منظار عمتي كلثوم، بها تقيس الأمور وتقدّرها، ورغم ذلك لم تنشأ بينهما مودّة كما لم يحصل مع الجميع، كانت تشبه والدها ولا تشبهها، الحقيقة أنّها فعلت خيرا وإلا

كانت صدمتني، ظلّت صليحة رفيقة لي كنت أقصّ عليها كلّ عجائبي وأنا صغير، الآن هي رفقة زوجها وأبنائها، أما عمّتي فمصرّة على التظاهر بالقوّة ولربّما تكون قويّة حقا، كانت تخرج بملحفتها كلّ يوم تتبضّع وتعود لتقصّ عليّ شجاراتها، وكنت أسمع صوتها من رأس الشّارع الأكثر ضيقا في العالم بحيّ القرابة الذي لا يقلّ تعاسة عن حيّنا ولو أنّ لديه مقابرَ وسجناً ووادياً، لصنع تعاسته الكبرى، استهجنتُ بقاءها في ذلك الحيّ، إلاّ أنها قالت بأنّ أيّ جلفاوي أصيل ولد هنا، وأنّ كلّ أهل الجلفة تربّوا وعاشوا هنا، لم أكن منهم فقد ولدت بحيّ قلب أهله تسميته من مائة دار إلى البيوت المقدّسة بنطقهم المختلف، من CENT MAISONS إلى SAINT MAISONS، وربما كانوا على حق في بعض الأمور، فبعد أن هدم أبي جزءا من البيت ليعيد بناءه وأقمنا لسنة مع عمّتي اكتشفت أن الحياة بعيدا عن البيوت المقدّسة مقرفة، كنت ألتقي السعدي بشكل متواصل، ورغم أنّي أصبحت أكثر حريّة في الكثير من الخيارات، إلا أنّ أبي لم يتوقّف عن حثّي على الدّراسة ومراقبتي على الدّوام، وعند عمّتي اكتشفت أنّها العجوز الوحيدة التي لا تكشف وجهها في الشّارع، في البيت يختلف الأمر، فعندما يأتي أحد الجيران فهي تستقبله بوجه مكشوف، ويعرف كلّ رجال الحيّ شكلها وملامحها، لكنّني لا أفهم لماذا لا تعرّيه أمامهم، وعندما تذهب إلى المصوّر لالتقاط صورة تعرّي وجهها، بل أنّ صورها القديمة عند «الرّومي» أغلبها بفساتين عارية اليدين، وبشعر أسود داكن مسدول على إحدى كتفيها وبوضعية إغراء لا تتناسب معها الآن، كانت تضع يدها اليسرى على خاصرتها وتدير رأسها إلى اليمين قليلا، وبجانبها زوجها مدني بيرنوسه وعمامته وبشاربه منتفخا، لا أعلم إن كان يفتخر بزوجته أمام الرّومي أم

أنه يهدّده إن نظر إليها أثناء تصويرها؟ كانت عمّتي متطرّفة في حجبها لوجهها، تمشي بعين واحدة، وتعضّ على طرف الملحفة لكي لا يفلت منها، وكانت كلّ معاملاتها تحصل تحت الملحفة، فهي تخبّئ المال في صدرها والمقتنيات في الكيس الكتاني المعلّق بكتفها، وحتى الحذاء البديل الذي قد تضطر إلى استخدامه يرافقها، ذات يوم سقطت من سيارة أمام بيتنا فلم تترك ملحفتها، سقطت مجتمعة على رأسها وظلّت تعضّ على الملحفة رغم ذلك، عندما أدخلت إلى البيت تبين أنها فقدت سنا ولم تشعر وكُسر ذراعها، لكنها لم تكشف بعضا من وجهها.

عشتُ شهرا وأزيد عند عمتي أستمتع بما تقدّمه لي من خدمات، لكنّ الرّعب لم يغادرني رغم أني تعاطيت الحلبة حتّى صرت يهوديا، كانت الحلبة تحوّلني إلى جسم كثير الإفرازات، ولم تنفع روائح البخور التي تضعها عمتي في غرفة نومي، ولم تجد العطور، وعندما شعرت بأني سأخرج عن الملّة بسبب الخوف قرّرت أن أتوقّف عن تناول علاج الحلبة، لم يكن هذا سهلا فعمتي أكثر من عنيدة، إما أن آخذ الحلبة عصيرا أو أسفّها مسحوقا، وإمّا أن تطلق العنان لغضبها، ولن أتنبأ بما سيحصل، ظلّت تردّد «أنت مخلوع» ولم أكن متوّجا لأخلع، ولكنها أصرت على ذلك، وتقبّلت خلعي واستسلمت، كانت كلمة مخلوع تعني مفزوع بالعامية، لكنها تعني شيئا آخر في الفصحى، ربّما ارتبط الأمر بالفزع الذي يصيب المخلوعين، فرسخت الكلمة، كنت أتظاهر بأخذ الحلبة ولكنّي أسقيها النعناع الذي تغرسه في فناء بيتها لهذا فإنّ كلّ شاي بالنعناع شربته معها كان طاردا للخوف.

يقول الرائي:لم تكن عمّتك تصغر جدّك بالكثير، بل إنّها تبدو أكبر منه، لم تكن ابنة جدّتك فأمّها ماتت منذ آلاف السّنين حسب قامتها

ورسوخها في الأرض، لهذا فعمّتك أقرب إلى الخيال، أنت تتوقّع أن تكون غير موجودة أصلا في الدّنيا، في لحظة ما أعجبك أن تكون النهاية هنا، تكتشف أنّك وعمّتك مجرّد خيال، صورة لهباء ما قد أكون أنا، لكنك ورغم التمادي في الخيال لم تعد تستطيع أن تنفرط من خطاك نحو الحقيقة التي تفزعك، تركت السّعدي كأنّه يلفظ جنّا كان يسكنه واتجهت إلى الخيال، ولعلك تركت الخيال واتجهت إلى الواقع يومها. عمّتك بدت لك بوجه قاتل، من المستحيل أن تكون إمرأة وفقط، لا بدّ وأنها قتلت ألف رجل، هكذا كنت تتوقّع في ليلك، ورغم أن قطّ عمّتك المزعج إختارك رفيق فراش إلا أن قبولك كان سلبيا، كنت نباتي الهوى فرفضت انتماءه إليك، كان قطّها أقرب إلى الفأر بفروه الرّمادي، تأمّلته غير مرّة واعتقدت أنّه حصل له ما حصل للبغل، فلو سألوه: من أنت؟ لقال لهم خالي قطّ، لأن والده فأر، عمّتك التي غالت في تدليل القطّ زجرتك عندما دفعته برجلك فلم تعد ترفض استيلاءه على جزء من فراشك، أو استلقاءه في استفزاز مبالغ بين رجليك في ليالي الهرب والحلبة.

عند عمّتي ما ليس عند غيرها، فهي مفوّهة لم تخرج مهزومة في أيّ من معاركها الكلامية منذ الأزل، ويردّد الكثيرون حكاياها ومآثرها ولأني أنتمي لعائلة التزمت الصّمت منذ وعيت على الحياة، فإن زياراتها المتكرّرة لنا كانت متعة بالنسبة لي، فكلما تعرّضتُ إلى تحرّش من الأطفال صعّدت الموقف ودفعتها لتخرج فتثير جلبة في الحيّ، طبعا الملحفة كانت درعها الدائم، ورغم أنّ صوتها كان يجلجل ويدها المجلّدة تلوّح إلا أنّ يدها اليسرى ظلّت تطوي طرف الحايك الملفوف على رأسها والذي لا يسمح إلا بعين واحدة لتتابع الأحداث، كانت عمّتي تضع نظارات طبية، لم أستغرب

أنّ عينها اليسرى أقلّ بصرا من اليمنى، فهي لم تستخدم اليمنى إلا قليلا. أمّا اليسرى فكانت وحيدة في «البوعوينة». جرّبت غير مرّة أن أشاهد العالم بعين واحدة. كان أصعب عليّ من مشاهدته بعينين اثنين. أستغرب كيف أمكنها أن تبقي لعشرات السّنين تتأمّل نصف الشّارع ونصف المساحة ونصف المنظر، كيف استطاعت أن تعرف تفاصيل المدينة بعينها اليسرى فقط، لقد عطّلت اليمنى لسنوات، ولأنّ عمتي من العجائز المتسكّعات فإنها لم تكن تكشف وجهها إلا عندما تدخل البيت وهو أمر يعد استثناء في حياتها، تذهب إلى الخياطة ثمّ إلى السوق، ثمّ إلى الأقارب المنتشرين في غير مكان، وقد تسافر مرة أو مرتين في الأسبوع إلى المدن المجاورة لتطّلع على أخبار معارفها العديدين. كانت عمّتي شخصية عمومية ولو ترشحت لانتخابات محلية لحصلت على مقعد في أحد المجالس البائسة.

كنت مسكونا بهواجسي في بيت عمّتي. هي تزور بيتنا يوميا، لكنها لم تحدّثني يوما عن الشاب الذي قتل. لم تقل لي أيّ شيء يريحني أو يقتلني بشأن السعدي، كانت كلما جاءت تحتفي بي وكأنها اطمأنت أني لن أعود إلى البيت وأني سأظل هنا قابعا في أضيق شارع في العالم، انتظرها كلّ مساء لتعود من رحلاتها المكوكية ككلب وفيّ يهزّ ذيله فرحا بصاحبه، لم تكن كلبيتي تلك تسعدني. سألتها غير مرّة أن تحضر لي بقايا مرآتي من غرفتي لكنها لم تفعل، ولم أرد أن ألحّ في الطلب لأتجنّب شكّها فيّ. في هذه المرحلة المتقدمة من التيه يمكن لأيّة حركة أن تدفع بي إلى الاعتراف بقتل السعدي، لهذا أتجنّب الحديث مع عمّتي عن شؤوني الخاصة، وعن شؤون الحيّ وعن الأهل والأقارب وعن صليحة ابنتها وعنها، لهذا أتجنّب الحديث وأكتفي بالابتسام لها وهزّ رأسي كأنّي أفهم أو أستمتع بما تقول.

والحقيقة أنّي لا أذكر أيّا من أحاديثها الطّويلة، كنت أفكّر أن أصلح المرآة، حتى وإن كانت قد كُسّرت وتحوّلت إلى شظايا مرآة لا يهمّ. فأنا أحتاج إلى وجهي بشقوقه ومنعرجاته ووديانه. أحتاجه بحقيقته ويكفي أن أصدّره كاذبا ومكذوبا للآخرين. فشلت كلّ مساعيّ لجلب المرآة لهذا كنت في حلّ من وجهي. لا أكاد أدري شكله. وإذا لم يكن بوسعي الحصول على رسائل من وجهي فإنّ خُطايَ ستكون غير مدروسة وسأفشل.

يقول الرائي: أصابك القرف عندما تقيّأ على فراشك قطّ عمّتك الفأريّ أو فأرها القطّي، لم ترحم مرضه، ولجأت إلى عمّتك لتكون شاهدة على تخلّف هذا الكائن وقذارته، لكنها راحت ترعاه كأنّه ابنها. وكنت أنت تتأمّل خيبتك في صمت، كان القطّ مريضا مثل إنسان، يسعل ويتقيّأ وهي تنظر إليه بعين الرّأفة كأنها امرأة أخرى، عمّتك القاسية كانت ستبكي لو لم تكن معها. شعرت أن القطّ ينظر إليك بألم، كأنّه يريد أن تفعل شيئا ينهي ألمه. سألت عمّتك عن حالته، فأكّدت أنه يشكو من أمر لا دواء له، إنّه الهرم. لقد بلغ القطّ المسكين من العمر عتيّا، ولم يعد بالوسع إلا الانتظار حتى نهايته. قالت عمّتك إنّه قد يغيب في أحد الصباحات، ردّدت أنت قد نغيب في أحد الصباحات.

أضيع في دوّامة من الهذيان، أشتاق إلى السّعدي ولا أتعذّب لأني قتلته، ولكن لأني فقدته، كان قتله أقلّ ما يمكنني أن أفعله له، لقد غادر نفسه، تخطّى كلّ العهود. لم يكن يحتاج أن أضمّه وإلا فعلت، لم يكن يحتاج أن أكون شهيده وإلا كنت فعلت، لم يكن يحتاج أن أتحدّث معه ولا أن أذكّره بما بيننا، كان يحتاج إلى نفيه من المكان، السّعدي عنيد وليس بالوسع طرده من الحيّ، كان قتله هو الحلّ الوحيد، لهذا فأنا لا أتعذب لقتله،

العذاب –فقط– لأني فقدته، في غيابه عشت على فكرة أنّ لي عالما غائبا، انتظرت أن نلتقي يوما فنعيد للحياة ملحها، فطيمة كانت التفصيل الذي يعقّد الحكاية والعقدة التي تشدّنا، اكتفيت بصورتها القديمة قبل أن نلتقي مجدّدا، تأكّدت أنّها لن تخرج من عرين صالح بطاطا، خاصة عندما أصبح للبطاطة شأنٌ، لكنها حطّمت كلّ الأغلال، كانت جميلة وواقفة وباهرة ويقظة، تلك الشّابة التي خرجت من أسر سنوات طويلة، لم تفشل في الحفاظ على ضحكتها بنفس الطّريقة، وحتى نظراتها لم تتغيّر، كانت فطيمة تبدو في نضجها ذاك أبهر امرأة على الأرض. نظرت إلى جمالها، تأمّلتها كما لم أعتقد أنّي سأفعل يوما، فعلت ما يمكن لأخ أن يفعله مع أخته، ما يمكن لأب مع ابنته، ولكن أيضا ما يمكن لعاشق أن يفعله، تأمّلت ذلك الكنز الأنثوي الذي خرج من فضاء ضمّنا معا، تسرّبت إليّ غيرة من الذكر الذي سيتلقّفها ومن بطاطا سيّء الذكر، كانت سعيدة بالجلوس إليّ، لم تتحرّج مني أطلقت العنان لجمالها كأنّها كانت تشكو من أسره، قالت لي: «الحياة مع إنسان توقّف عن التّفكير وانخرط في الكيل صعبة جدّا، كان بطاطا أغرب من أن أصبر عليه ليس فيه ما يستحقُّ أن يقبل لأجله، كان مجرّد جثة موات». كنت أصغي إلى حديثها وأتمنّى عليها أن تشرح وأتظاهر برغبتي في إصلاح ذات البين بينها وبين بطاطا، لكنها واصلت حيث أردت، «لم أحصل معه على شيء، لا شيء يُجمّل ذكراه أو يُبقي منه ريحًا طيبًا، لا متعة ولا أنس، كان يدخل لينام طوال عشرتي له، يحبّ الأكل بشراهة ويظهر القوّة لكنّه أميل إلى الجبن، في أوّل ليلة معه، في أوّل خيبة كنت أجهل ما يفعل، رائحة زيت الزيتون عمّت المكان، اعتقدت أنّ النساء يزففن بزيت الزيتون»، أردت أن أسألها ماذا فعل

بالزيت بدل العطر في ليلة العمر؟ لكنني تحرّجت، قالت لي إنّ الأمور لم تكن على ما يرام بعد ذلك، ولم يكن يجدي أيّ شيء دون سائل لزّج يمنحه انزلاقا إلى داخلي، توقّفت قليلا عن التركيز في بقية حديثها، بدت لي منفلتة من عقلها، وربما كانت قد تعوّدت عليّ رغم غياب السنين. أنا لم أغفل وجودها هي والسّعدي أبدا.. كانا دائما في الذّاكرة، أردت أن أوقفها عن الكلام وأحكي لها وحدتي دونها ودون السّعدي. تملّكتني رغبة ملحّة في عناقها، أصبحت أقرب إلى الجنون، تلك اللّحظة أقسى ما يمرّ على إنسان، مساحة من التّفكير في الفراغ وفي كلّ ما يمكن التفكير فيه، ثوان معدودات غامقة اللّون، ثقل مفرط يحطّ على الرّأس، كنت متأكّدا أنّها تدخّن الآن سيجارة من سجائر مقبرة اليهود، عندما قبضت مجدّدا على صورتها وعلى صوتها وضبطتُني في حاضرها لم تكن تفعل، ربّما كانت قد وصلت إلى منطقة أخرى أقلّ خصوصية من منطقة يسكب عليها الزيت.

لا حركة تدبّ في مقبرة اليهود المنسية، وأنا أصبحت متأكّدا أنّ اليهود لا يملكون أية رائحة خاصّة، ولكن لونهم غائر اقترن في ذهني بالصّخر الذي على القبور، أريد من كلّ قلبي أن أندم على جريمة قتلي للسعدي دون جدوى، الأمر الوحيد الذي أشعر به هو الشّوق الجارف إلى السّعدي وفطيمة. أشعر أنّي شخصان مختلفان التقيا داخل جسم خرب، أريد أن أحقّق لأحد ما انتصارا، إدريس أم السعدي؟ من الأقرب إليّ وأنا في هذه المقبرة؟ كنت أسمع صوت غناء الصّرصور الأبله، فيذكّرني بابن عياش الذي يسكن بمحاذاة المقبرة، اتّهم ابن عياش السعدي بأنه مثل الصّرصور يغني طوال الصّيف ويتعذّب بفشله في الصّيف، ولم يكن السعدي في مزاج جيد بعد إخفاقه في شهادة التعليم الأساسي فنشب بينهما قتال حقيقي،

ابن عياش كان متفوّقا، لكنه لم يذهب بعيدا عنا، جاذبية حيّ المقابر منعته، تحوّل إلى تاجر ملابس داخلية. ربّما ذلك علم آخر. كان ابن عياش نموذجا للكثيرين من أبناء الحيّ الذي يبدؤون بتفوّق، وينتهون إلى عمّال يوميين يكدّون لتحصيل قوتهم، لا أعرف السبب، ولكن الحياة في «صون ميزون» أقرب إلى العبثية، الرّفاق غيّروا التسمية مع الوقت لتصبح: دون منزل: sans maison كأنه العراء.

يقول الرّائي: كان حيّك يضجّ بالحياة رغم مظاهر الموت، لم يكن هناك مشفى أو مستوصف ولا بناء يأوي إليه الناس إلا المسجد والمدرسة في السّفح والسجن الذي يتعوذون منه أو المقابر الثلاث، مقبرة لجدّك رغم أنه تقاعد إلا أنهم مدّوا عمر عمله بمقبرته أو مزرعته، ومقبرة لك وصديقيك لا يزورها أحدٌ، ومقبرة «الخضراء» التي تمتدّ إلى عوالم أخرى لن تصل إليها رائحة موتى اليهود لأنّه لا رائحة لهم، لم تكن مقبرة المسلمين أهم إلا من حيث عدد الموتى واقتراب قبورها من الأرض حدّ الضّمور أحيانا. كانت قبور الجبانة الخضراء تغطّى في الرّبيع بالعشب الأخضر، فتتحوّل المقبرة إلى مرج، وكان سورها ترابيّ اللّون بقصر سور مقبرة اليهود، ولم تكن تملك أبواب رغم أنّ لديها خمسة مداخل بسبب امتدادها، لهذا اتّخذها العابرون بين الأحياء معبرا مختصرا يقرؤون إثر عبورهم الفاتحة ويردّدون «أنتم السّابقون ونحن اللاّحقون».

لا أعرف حتّى متى سأظلّ هنا؟ أمضيت ساعات في المقبرة، في البداية كنت أسمع فرقعة الدّومنو في جهة بيت ابن عياش، ثمّ توقّفت سهرة الشّباب وافترقوا، الآن لا شيء يكسّر شريط الفيلم الأكثر رداءة سوى مرور سيارة أو نباح كلب في وادي ملاح الحزين، عندما يحلّ الصّباح سأحملني إلى

المسجد وأصلّي، ثمّ سيشيع خبر رجوعي وسأسلّم نفسي للشّرطة، التي يفصلني عنها سور مقبرة اليهود وأربعون مترا على أكثر تقدير، ربّما ستلطمني خالتي التاقية وسينظر إليّ الجميع بحقد، الأطفال سيخافونني، شقيقي المسكين سيصاب بإحباط، أمّي ستتوقّف عن عبارتها الشهيرة «أنت يغربل عليك الماء» وستصاب بالبكم، أبي سيصاب بنوبة سكّري أو يشلّ، وعمّتي هي الوحيدة التي لن يصيبها شيء فهي كائن محصّن ضدّ الأضرار، إمّا أن تموت أو تواصل حياتها بشكل طبيعي، فقد مات زوجها وابنها وقطّها وتزوّجت ابنتها ولم يتغيّر في حياتها شيء، فطيمة ستجنّ ولن تجد من يقف إلى جانبها، وربّما تقرأ بالمصادفة جريدة طابلويد تافهة تكتب «**بسبب فتاة يحبانها معا... شاب يجهز على رفيقه بطعنة قاتلة**»، ولن يكون بإمكانها أن تتنبأ بي ولكن ذكر الحيّ سيحيي فيها بعض الشّوق وربّما بعض القرف، لست أدري، لعلّ الصّحفيّ يكتب (ألقت شرطة الجلفة، أمس، القبض على الشاب «إ.ن» بعد أن ظلّ فارًّا لأزيد من شهرين اثر اقترافه لجريمته الشّنعاء....) لكنّني سلّمت نفسي، ثمّ إن العلاقة التي بيني وبين فطيمة ليست علاقة كالتي يتحدّث عنها، أخطأ تماما هذا الصّحفيّ، لعلّ عمّتي تغفر لي وتعيد إيوائي، لكنني أعرفها إنها عمود كهربائيّ، لن تسامحني، لقد ظلّت على خصومتها مع أمّي خمس سنوات، تزورنا وتأكل وتشرب وتتدخّل في كلّ شيء دون أن تكلّم أمّي أو تنظر إليها، ولولا العيد ورجاء أبي واستسلام أمّي وطلبها العفو، لواصلت لثمانين سنة.. أنا لا أتصوّر أنّ عمّتي ستموت قريبا فهي مدعومة كجدّي، ويبدو أنّهما مصرّان على دفن الجميع. اكتشفت أنّي لا أتعاطى الحلبة، لست من محبي هذا المسحُوق الذي يجعلني أشعر أنّي شخص ثالث، أحبّ النّبق أو سجائر

الأفراز أو الكيف إذا اقتضى الأمر، مستعد لشرب البيرة، الحلبة لا.. لا.. لا. أنا مستعد أن أدخل السجن ولكني أرفض حلبتك، هكذا قلت لها، لم تتردّد وألقت بي في لحظة إلى الشّارع، وأنا لم أستجْدِها.. وغادرت، ولم يكن بوسعي وأنا أشقّ الطّريق من القرابة إلى «ديار الشّمس» عبر وادي ملاح الذي أخذ يعاتبني فأبكاني إلا الرّغبة في النهاية.

يقول الرائي: كنت يا رؤياي تحبّ هذا الوادي، ولست وحدك من أحبّه، قدماء المدينة شربوا ماء هنا واصطادوا السّمك، في الماضي كان هذا الوادي يزرع سمكه بقلبه عندما يجفّ ماؤه ويدفعه إلى الحياة عندما يفيض، لكنهم سمّموه عندما رموا بفضلات المصانع إليه، أصبح الوادي خندقا عظيما يشقّ المدينة برائحة كريهة، يفيض في الشتاءات ليخرج غضبه الكبير، ويهدأ في الصّيف كأنه آخر. كنت تملك صفة جنون أخرى، الإصغاء للوادي كلما عبرته، وقد حكى لك غربته في هذه الدّنيا وحكيت له غربتك، ولعلّك اتّفقت معه على الهجرة في الشتاء القادم، لعلّك ستنجح في المغادرة رفقة وادي ملاح المقهور، وسيفيق أهل المدينة، فلا يجدون وادي ملاح الذي لم يحتفوا به، كأنهم عابرون وهو مقيم، ساعتها فقط سيفتقدونك.

أدخل إلى مقبرة اليهود وأنا أكتم حكايتي عني حتى لا أفضحني، عمّتي تبكي في الغد فقدان قطّها فمن سيبكيني بعد أن قتلت السعدي، سأبكي الجميع لكن بكاء السعدي عليّ كان سيوجعني لهذا فإني أشعر ببعض الرّاحة كوني منعت عنه هذا الألم بقتله.

6- دع عنك لومي

طلع النّهار تماما وما أزال قابعا عند قبر كبير اليهود، تصلّبت في مكاني وأخفقت في الخروج من هنا، بدأت الحركة تعود إلى الحيّ، أسمع صوت الحوانيت والكاراجات وهي تفتح، أصوات السيارات تضاعفت ومرورها أصبح عذابا، أزداد احتقانا ورغبة في التبوّل في كلّ ثانية، يحصل هذا كثيرا معي، لا أحبّ الأماكن التي لا تحوي مراحيض، إنّها رغم فسحتها معذّبة، حركة الأطفال المتوجهين إلى المدارس وخطوات الرّجال الكادحين وصوت محركات الغولدوني العلامة المسجلة لمدينة الجلفة، كلّ ذلك يزرعني بقوّة في عذابي، من أين أخرج ولمَ؟ أصبحت المقبرة مأوايَ الوحيد لنهار كامل، شّمس مارس بدت لي وكأنّها تسخر مني، أطلّت بسرعة وسلّطت لهيبها على محيط قبر كبير اليهود فأحرقتني، ربّما كنت مثله، مجُرمينّ نكتوي بجهنّم قبل القيامة، ليس هذا صعباً بقدر صعوبة مثانتي التي ستنفجر بعد قليل، أردت أن أجد حلاّ لي قبل أن أتبوّل لا إراديا، لمحت قارورة ملقاة أسفل باب المقبرة، لكنني لن أجرؤ على الاقتراب من الباب الموصد منذ سنوات والا تمكّن المارّون من ملاحظتي، تسحّبت على الأرض إلى غاية القارورة، أحدهم كان يتحدّث في هاتفه أمام الباب، لم أكن أريد أن أسترق السّمع ولكنّه كان كلاما وقحا وفاحشا في صباح لا ينتمي إلى فصل واضح، كان الرّجل يوبّخ امرأته بشكل أعنف من قتلي للسعدي، لكنه لن يحاسب ولن يعاقب ولن يؤسر في مقبرة اليهود، فكّرت أن أصيح به فيصاب بالجنون من صوت يأتيه من المقبرة الأكثر سلاما في العالم، فهي لا تستقبل موتى ولا زوارا، ولا يفتح بابها ولا يغلق، إضافة إلى أنّ البلدية

تقوم بحراستها وتنظيفها بشكل جيّد، سحبت القارورة وملأتها سريعا بلتر من البول المعتّق الحارق. الأسر في مقبرة أقسى من الأسر في بيت عمتي كلثوم، مرّ الصّباح قاسيا وطويلا ومأهولا وأنا غير مرئيّ رغم وعيي بما يحصل، اكتشفت أنّي أجدّى عندما أكون غير مرئي، عشت تجربة عميقة وأنا أصغي إلى أصوات أبناء الحيّ وأحاول أن أعرف أصحابها، عشرات المارين أمام سور المقبرة كانوا تحت رقابتي دون أن يعرفوا ذلك، تحسّست كلّ الحيّ وأحداثه المرتقبة من تحت السّور، شعرت بما يحصل لشخص مأسور في مكان مأهول، وعرفت أيّ عذاب يعيشه من كفّ بصره بعد أن كفت عن الحركة، فجأة قفزت إلى رأسي المحترقة من حرارة الشّمس فكرة أن أحاور القبور اليهودية، كان السّعدي بارعا في ذلك، طالما قدّم لنا صورا عن أفكار أصحاب القبور، اجتهد وحكى لنا تفاصيل حياة كلّ ميت، من خلال الكتابة العبرية على القبر، لم يكن أحد يكذّب السّعدي في حكاياته، فطيمة كانت تتطرّف في تصديقه فتسأله ما كان اسمه أو إن كان لديه أبناء، ولعلّها سألته عن شكله فيشرع هو في أوصافه للميت، أفتقد السّعدي في هذا التفصيل، لهذا سأحاول أن أتعرّف على علمه من خلال هذه القبور، أتحسّس القبر الأقرب إليّ. لا معنى للحروف في ذهني ولا يمكنني أن أقرأها، أتجاوز هذا، كتب على سطح القبر «هذا قبر ايهود داود، مات في الجلفة في 1931 بعد أن أصيب بالتيفوس»، لكنني لم أتمكن من صياغة البقية، كنت وحدي وأصابني العجز، فكيف سأفعل إذا كنت مع فطيمة والسعدي، أيّة قدرة خارقة كانت لك يا قتيلي؟ قلت في نفسي إن هذا القبر عصيٌّ وأشحت بوجهي نحو قبر ثان، الأرقام كانت مقروءة، لكن الحروف لم تكن مفهومة، هذه هي العبرية التي قال عنها

أستاذ التاريخ والجغرافيا إنها لغة ماتت وأحياها أهلها، لا أفهم كيف للغة كتب بها في الجلفة في القرن الماضي أن تكون ميتة وبُعثت، لكنني هذه المرّة أكثر جسارة فقد أضفت إلى الاسم وتاريخ الوفاة تفاصيل أخرى، قليلة ولكنها سريعة جعلتني أشعر بأنّي رجل وفيّ لذكرى صديقه، كان السّعدي في موقف مشابه يقول ما أقوله الآن «هذا قبر بن يمينة سليم، مات بالحبّ والألم في أكتوبر من سنة 1926، ترك وصية...» البقية لم تكن واضحة. كان شابا قمحيّ اللون، ولد في الجلفة ومات فيها في الرّابعة والعشرين من عمره، كان يحبّ امرأة عربية مسلمة ولم يكن بإمكانه أن يتزوّجها. يُقال إنه مات مسلما ولا أحد يعلم بأمر إسلامه إلا حبيبته التي أصيبت بانهيار عصبي، أوّله أهلها على أنه مسٌّ من الجن، دُفن الشاب في مقبرة اليهود وسيبعث مسلما»، ها أنا أملك قدرة السعدي تدريجيا، ولكن الشاب سليم فطر قلبي، شعرتُ بالحزن لأجله كدت أن أبكي من قصّتي التي ألّفتها منذ قليل، هذا تماما ما كان يفعله بنا السّعدي.

ترك سليم وصيّة، لهذا سأفعل الأمر ذاته، ينبغي أن تكون لي وصية، قبل أن أفكّر في وصية سليم بن يمينة، عليّ أن أفكر في وصيتي، لمن أتركها؟ أكتبها لفطيمة الوحيدة التي بقيت منا نحن الثلاثة، فتكون خير حافظ لذكراي، أم أكتبها لوالديّ وشقيقي فيتعذبون بذكرى ابنهما المعتوه؟ هجم عليّ هاجس الوصية دون سابق إنذار، فجأة وجدتني محكوما بوصيّة بلا وجهة، فكّرت أن أجعلها وصية مفتوحة للجميع، يمكن أن يقرأها الذين أحبوني ولم يكرهوني بعد.. كأمي وأبي وشقيقي وفطيمة، والذين أحبوني ثم كرهوني.. كخالتي التاقية وعمتي كلثوم وابنتها صليحة، والذين كرهوني منذ البداية كفريد شقيق فطيمة، ووالده الحاج بورقيبة، وصالح بطاطا،

ولا يمكن أن يقرأها الذي أحبني، وتوقّف عن حبي دون أن يكرهني... لا يمكن أبدا أن يقرأها السعدي.

يقول الرائي: جدّك لم يكتب لك وصيّة، ولا لغيرك، أخذك صغيرا إلى المقبرة حيث حفر له قبرا، وطلب منك أن تتذكّره إذا نسيه والدك، ولم تعد أنت إلى القبر ولا عدت تذكر أين هو. فالموتى لا يفتأون يتزايدون، ومقبرة المسلمين هي الوحيدة التي تضيق بموتاها، أنت كنت من أنصار مقبرة اليهود أو النصارى، لما فيهما من فسحة، رغم ذلك إلا أن كتابة وصيّة تبدو أكثر من غريبة، ربّما لو أنك قرّرت أن تقول حكايتك لكان الأمر مفهوما، أما الوصيّة فهي للكبار أو لمن يملك ثروة أو أبناء، أنت بالكاد كان لديك ظلّ لهذا، فأمر الوصيّة يرسّم جنونك ويجعل الجميع يتأكّدون أنّك كنت معتوها، اجعلها حكايةً.. فتمرّ بهدوء.

هكذا ستكون لي وصية، سيقرأ الناس كتابي، وأُخلَّدُ رغم أنّي كنت مجرما، هكذا سوف أنسحب من الخيبة الدائمة التي رافقتني منذ فتحت عيني إلى الخلود الذي يرافق البشرية إلى أن تغمض عيونها، هكذا سوف أمنح السعدي وفطيمة ووالدي راحة في حياتهم كما في مماتهم، وسأخلّد ديارَ الشمس في التاريخ.

تحوّل تركيزي من الوضع اليهودي الذي كنت فيه إلى الخلود، ولكن كيف يترك الناس وصاياهم؟

قبل أن أقتل صديقي كنت أفكّر أن أبدأ معه حياة جديدةً، لا تعير اهتماما للماء الذي غُربل علينا طوال السّنوات الماضية.. حكى لي السّعدي مرّة وقد سكر تماما حكاية طويلة وقاهرة عن فطيمة وهو يحتسي الخمر، في صغري كنت أسمع بعض الرّاسخين في الخمر يقولون «إذا أردت أن تعرف

سرّه سكره» لذا تأكّد لي أن ما يقول هو الحقيقة بفعل تأثير الخمر، رغم أن علاقتنا تمتد على الطول والعرض، رغم أني أحكّ المكان الذي يحكّه، وأشرب الماء دون أن أعطش لأني أشعر بعطشه، ورغم أنه يشاركني كلّ التفاصيل إلا أننا لم نشرب يوما مع بعض، كنّا أصدقاء في وعينا أمّا في سكرنا فلم نتعرّف قط، هذه المرّة وقفت عليه وهو سكران، كسر داخلي الكثير من القواعد، سمعت صوتي وأنا أتحطّم، كان قاسيا وهو يروي كيف ابتذل فطيمة، هل يمكن للسعدي أن يفعل أمرا مشابها مع فطيمة؟ التهمني الشّك والقهر، شعرت أنّي الرّجل الأكثر ضعفا والأكثر تضرّرا في العالم، كانت تلك اللّحظة تقاطعا بين الفقدان والانهيار، نهاية محتملة، لست أعلم كيف مررت من نقطة الموت تلك إلى نقطة القتل لاحقا، لم أكن أعرف أيّهما حمّى الحقيقة وأيّهما الكذب، فطيمة والسّعدي عذابان متوازيان قد لا يلتقيان، لكنهما يصبان في قلبي.

يقول الرائي: كان الاعتراف بمثابة طعنات تتوالى في قلبك، وغالى السّعدي في التفاصيل، قصّ عليك ما يجب وما لا يجب، رائحتها، أنفاسها، تأوّهاتها، حكى لك كلّ ما لم ترد سماعه وهو يتجرّع الخمر المتواضع، داخلك ارتجاف وخارجك جليدٌ، شعرت أنك ستختنق، وتمنيت أن يكون ذلك هذيان، أن تكون تلك أمانيه حوّلها إلى حكاية وهمية؟ ألا يكون الشّرير فيه من أخذ الكلمة الآن مغتنما فرصة سكره؟ لم يكن الأمر كذلك، فكلّما أعاد الحكاية حافظ على الصّيغة ذاتها، بل إنّه فسّر وعمّق جرحك بتفاصيله، تلك فطيمة فعلا وليست أخرى، فأنت تعرف بعض التّفاصيل، ساقها بعلامة تركتها أنت، وبطنها بأثر جراحة الزائدة الدّودية، تلك فطيمة لا محال، فأين هو السعدي وأين أنت؟ هزمك

السعدي وهزمتك همّتك المتواضعة، وهزمك صالح بطاطا الذي فشل وأحالكم جميعا على هذا العذاب المشترك، وهزمك والد فطيمة بورقيبة اللّعين بمذهبه الأخرق.

عرفتُ الكثير عن السعدي الجديد منذ عاد، كان قلبي كقلب والد حذر، تجاوزت عنه استفزازه المكرّر لي، تعمّده إحراجي في الشّارع وبين الجيران، تفانيه في النظر إليّ بحقد، أو على الأقل دون حبّ، كنت أقترب منه متجاوزا كلّ ما يدور في ذهنه، داخله كان إحساس خاطئ، حقد لم يكن موجّها لي لكنّه لم يصادف غيري، أو لنقل كنت الأوفر حظا في حقده، عندما كان يحتسي البيرة وينظر إليّ، بدت نظرات الحقد خافتة، ردّد اسمي بنفس الطّريقة التي كانت من قبل، اللّحن ذاته وبعذوبة اشتقتها، كان صادقا لهذا فأنا متأكّد ممّا يقوله عن فطيمة، ولست أصدّقه في الوقت نفسه لأن حكايتها تختلف عن هذه، لماذا عليه أن يكشف الستر عن فطيمة إذا فعل حقّا هذا، أفهم أنّنا شركاء في الكثير من التفاصيل، ولكن الحياة صنعت منا ثلاثة ولم نكن واحدا، توزّعنا على تفاصيل خاصة لكل منا، لا أعرف ما الذي اقترفه في سنوات غيابه، لا أعرف ما الذي اقتنعت به أو ما الذي احتاجته هي خلال سنوات انقيادها وأسرها في عرين الورق، ولا يعرفان معا حياتي أو أوهامي الأخرى بعيدا عن الصّعود والنزول في «صون ميزون»، لقد كانت لنا حيوات متفرّقة وحياة واحدة.

مرّ اليوم عسيرا في مقبرة اليهود، رسمت لعدد كبير من القبور حكاياها، وأسماءها ومعاني حيواتها وأسباب موتها، أبكاني البعض وأفرحني البعض، سعدت لتفاصيل البعض وأصابني الإحباط لفشل البعض، لم أعثر على شخص واحد من الموتى اليهود قتل صديقه، واختبأ في مقبرة المسلمين.

انطلقت وصيتي في كلّ مرّة بديباجة غير الأولى، وكلّما أردت أن أعيد في ذهني آخرها وجدتني أؤلف أخرى، وصيّتي كانت في العادة تبدأ بتحيّة للجميع، لكلّ من يقرأ ما تركتُ من كلمات أخيرة تتّسع إلى الأسماء فأذكر كلّ من عرفت من أبناء الحيّ والمدينة والأقارب، وأريدُ أن أتجاوز هذا الفصل الملّ من ذكر الجميع بأسمائهم فأكتفي في الصّياغة الأخرى بوالدي وخالتي التاقية ثم شقيقي وفطيمة، ثمّ يتوافد الجميع دون خجل ليضعوني في الورطة نفسها، لم أصل إلى الصّياغة التي تشفيني من عذابي.

يقول الرائي: في النّهاية اتسعت الوصيّة وما تزال تفكّر كيف ستختمها، بل إنّ خللا كبيرا قد يأتي عليها، فإذا أنت واصلت في هذا الأمر قد تخرج من تصنيفها كوصيّة وتتحوّل إلى حكاية، وهو أمر مَحْمودٌ على كل، وإذا أردت أن تُنهي الأمر هنا فسيكون أفضل لك أن تقول «ولكم أن تتصوّروا البقية»، إن وصيّتك تبدو بلا معنى، فأنت لم تلفت إلى ما يجب لحدّ الآن، لم تقل ما يقوله عادة كتاب الوصايا، أوصي بكذا وكذا ولفلان وفلان وبأن يحصل ويحصل، ليس بوسعك فعل هذا فاترك الأمر، صحيح أني أملك القدرة على وقف كلّ هذا، أن أنقذك من عذابك الذي يتراكم، لكنني لم أشأ أن أحرمك من حقّك كاملا، تماما كبقية سكان ديار الشّمس، يمرّون بعسر ولا يعرفون أنهم في عسر لأنهم لم يروا اليسر قط.

في اللّيل عندما عاد الصّرصور إلى الغناء رميتُ بي من سور المقبرة، كنت منهكا، شعرتُ أن رائحتي تكشفني قبل إبصاري، تمنّيت العثور على قطعة خبز على قارعة الطّريق، قطعة يابسة يكون أحدهم قد قبّلها ومسحها على جبهته، لو أنّي عثرت عليها إذن لالتهمتها وأنا أبكي، أشعر بالتيه.. بالضّياع، ولا أريد الآن سوى العثور على السعدي، أريد أن أتأمّل

قبره وأحكي تفاصيلَ مختلفةً غير التي كانت، أن أُغيِّرَ الخطّة التي كانت، وأضعَ البديلة تلك التي لا ترمي بي إلى هوة سحيقة لم أكد أخرج منها.

التقيت الشيخ الماحي وتعرّف عليّ، خشيتُ أن أقترب منه بسبب تعفّني بعد زمن مقبرة اليهود، لهذا فقد اكتفيت بتحيّة عابرة، لم يكن يؤنّبني بنظراته، شعرت أني لن أكون إحدى عبره، شباب الدومينو لم يستغربوا مروري، ولا أصحاب المحلات ولا الأطفال اللّيليون فرّوا مني، تحوّلت خائفا أشعثَ أغبرَ، ولكنني لم أشعر بالطمأنينة أبدا، منذ أشهر وأنا أتردّد في الظّهور، عندما مات ماتت كلّ رغباتي، جئت من الفراغ، لهذا فقد امتلأت بالدّهشة.

كان اسمي يتردّد في العالم الخارجي، وكنت أمطّ الخطى نحو شارع الخوف، شارعنا، وصلت وربّما لم أصل، كنت وربّما لم أكن، الشّارع أسود مخيف، ثم سريعا رمادي، ثم أبيض، أنا الآن في عمقي لا أعرف إن كنت أسمع حقا أم أنّ الاسم لإدريس آخر، صوت من أفترضُ أنّه طبيب يقول «أنا لا أستجيب» وأنا أردّ عليه، لكن الفاصل بيننا غير حقيقيّ ولا متخيّل، لست أعرف إن كان الجميع على علم بأنّ السّعدي مات على يديّ؟ الحقيقة الوحيدة التي أعتنقها الآن أنني أنا الفراغ.

عندما وصلت إلى غرفة المالك الحزين لم أفهم المشهد الذي وقفت عليه، كانت فطيمة تنسحب من يدي السّعدي دون جدوى، ما الذي يفعله السّعدي بفطيمة. كان بوسعي أن أفسّر الأمر كيفما اتفق لو أن التي بين يديه أخرى، لو أنّي لم أسمع منهما روايتين مختلفتين، لكنني غرقت في الضّباب والسّراب، أضعت رشادي وعقلي، ما حدث لاحقا ليس إلا ما أراداه معا، ما حدث كان نفيي منا نحن الثلاثة، أخذت السكين التي وُضعت وكأنها مهيئة لي، ودون أن أكلّم صديقي أو أتدخّل لفض اشتباكه مع صديقتي غرستها في

قلبه، كنت أريد أن أطعنه في كتفه الأيمن، لكنه استدار بسرعة، ووجدتها تسكن قلبه وتقتلني فيه، اختفت فطيمة واختفيت وانتهى السعدي، ولست أعلم كيف كنا في غيابنا، لست أعلم من روانا وكيف؟

إدريس... إدريس

اسمي صار عبئا، أفكّر في اسم آخر، لا يصلح الآن أن أغيره، لأجل هذا أفضل أن أستمر، أغمض عيني اللّتين لم أفتحهما أصلا، أتصوّر أني أغمضهما وأنّي أنكمش في فضائي النائي، أضعني حيث أراني جيّدا وأعيد الإصغاء، لا صوت إلا خارجي، الداخل مُؤَمّنٌ لي وعليّ.

يقول الرائي: لن تعود بسهولة، هناك في داخلك كلّ شيء ينصّبك سيّدا، أنت البعد والمسافة والزمن واللون والرّوح والجسد، هذا التّصنيف يمنع عنك الخارج ويمنعك عنه، هذه الوضعية الهلامية تمنحك حقّ المكوث بين الموت والحياة، أعرف كيف فعلت هذا فأنا أراك، أراقبك، أتبعك منذ البداية، وأنت توهم نفسك أني في زاوية ما. في داخلك ما لا يوجد خارجك.

إدريس...إدريس

اسمي هو الأمر الوحيد الذي بقي مني، كلّ البقية أخذتها معي وضمّنتُها الوصيّة حتى لا تضيع بين الموتى في ديار الشمس.

7- التطهير

غادرت الجميع ووضعتني في مقام آخر، تركت لهم الألقاب والأسماء والأجساد والأوهام والرّغبات والظلال والقبور، التعاسة والحبور. لهذا لا يجدي معي أيّ نداء، عندما عدت إلى الحيّ لم أكن محمّلا بألم القاتل، ألا يشعر القاتل عادة بالألم، أنا لم أكن أتألّم، الشّارع الذي أرعبني سابقا تحوّل إلى مجرّد مكان، فجأة سقطت كلّ تفاصيله، لم يعد له أيّة نكهة تماما مثل المدن والأحياء والشّوارع الجديدة في أوّل أيّامها، مبان فارغة من معانيها، لم يمت بها شيوخ وعجزة، لم يتعارك فيها صبية، لم يتعاشق في مخابئها مراهقون، لم يحقد البعض على البعض ولم يقتل إدريس السعدي، نسيت المالك الحزين ورغم أني التقيت بالحاج بورقيبة على غير ما تركته عليه سعيدا ومنتفخا مثل سابق عهده، وإن كان أهزل وأخفّ وأميل إلى الصُّفرة، إلا أنّي لم أستغرب فلهذا الرّجل شؤون، مررت عليه دون تحية. كنت بعيدا عن تذكر أفراد أسرتي، لا أحد يعرف نوع الشعور الذي ينتابني خلال ذلك، أنا أتحسّس خُطايَ، مجبر على حثها على هذا النحو، توقّفت والتفت أتمنى عليّ العودة لكنني واصلت في عمق الشارع، ليس هناك أشباح. أبدا لا يوجد قتلة ولا مقتولون، بدا الشّارع أقرب إلى فضاء يحتفي بموت طبيعي، وليس بالقتل، استمررتُ في التقدّم، أمام مملكة المالك الحزين، عشرات الكائنات التي تستعدّ لأذيّتي وأنا لا أبالي، وقفت لحظة، فُتِحَ الباب، أعرف هذا الوجه، أعرف بمَ يفكر الآن... ولن أزيد من عذاب خالتي التاقية فأواصل السير، ربّما ابتسمت في وجهي، لعلّها ذكرى السعدي ما طفا على اللّقاء السريع، لن ألتفت مطلقا، أنا

أسوقني إلى قدري بحرية، ففي مقبرة اليهود قرّرت أن أكون سيدا للبقية، أعرف أن الحياة لم تعد ممكنة دون السعدي، ولست حزينا من أجل حياتي ولكن من أجل حياتنا معا، أكثر ما يؤلمني هو فطيمة التي لن تتمكن من اللّجوء لأي أحد بعدي.

يقول الرائي: كانت التاقية تريد أن تعانقك بعد غيابك ولكنك مضيت دون أن تلتفت إليها، وكان الشيخ الماحي يحدّثك في أمر ما، وأنت تمشي دون أن تعيره اهتمامًا، ودعاك شبابُ الحيّ إلى اللّعب معهم لاحقا ولم تسمع دعوتهم لأنّك لن تلبي، ولأنّك لم تلعب الدومينو يوما، بدوتَ في تعبِ الحكيم، كأنك رجل أتعبته الحكمة فملامحه ذابلة، لكنها مضيئة، هل اقتنصت الحكمة من قبر يهودي؟ أم قطفتها من تيهك وعذابك المُتوهّم؟ أم هو تعديل ضروري من أجل الوصيّة؟

بدأت أشعرُ أنّي رجل مقدّس، تمنّيت أن أرى وجهي الآن في نشوتي هذه. كانت المسافة بيني وبين بيتنا أقلّ من دقيقة، والمسافة بين قداستي ودناستي أقلّ من ثانية، وإذعانا منّي للقداسة التي لبستُها أو لبستْني، سوف أواجهُ أيّ حجرٍ من أيّ سطح من بيوت الحيّ التي بدأت تفقد قرميدها تدريجيا، وسأتجاوز كلّ الشتائم والسّباب التي يخزّنها لي أهل الحيّ داخلهم، سأمرّ كأنّ حجرهم قطنٌ وشتائمهم مدحٌ ونظراتِهم قُبُل على جبيني، سأمر فرحا على الحزينين، هذا بيتنا الذي عشت فيه منذ كنت في الثالثة من العمر، قبله لم أكن أذكر كيف كانت حياتي في بيت جدّي الذي يجاوره، اقتنى أبي هذا البيت قبل أن أولد بسنوات، لكنه أجّل السّكن فيه إلى غاية وفاة جدّتي، ولست أفهم كيف أمكنه أن يترك جدّي وحيدا، ولماذا اختار أن يغادر بعد أن ترمّل جدّي؟ إحساس ما أملى عليّ أن أبي كان يخشى

جدّي، يخشى جنونه وأفكاره العجيبة بعد أن فقد امرأته التي كانت تلجمه عن الآخرين بما فيهم هو وأمي. سكنا في بيتنا الجديد وولدت أمّي شقيقي خلال أشهر فشعر أبي أنها عتبة مباركة، ومن يومها قدّس هو بيته، وقدّس جدّي بيته أيضا، فأصبحا جيراناً أكثر منهما أباً وابنه، ظلّ بيتنا زريبةً للماشية التي اعتاد جدّي تربيتها وتسمينها، أمام البيت كانت هناك صخرة متوسطة الحجم، كانت معلما للبيت، في طفولتي الباكرة ارتبطت بها، كنت امتطيها وأتصوّرها حجري الطائر الخارق، طالما طفت أعلى المدينة من حيّنا إلى غاية المدينة الجديدة، وصدّقت رؤياي، فعلقت صورة المدينة من أعلى في ذاكرتي، أزالت البلديّة الصّخرة دون أيّة مناسبة ودون أن تستأذنني فتغيّر شكل الشّارع، شعرت أنّه هوى قليلا، عندما كنت أعود من المدرسة وحدي في البداية ومع السعدي وفطيمة لاحقا، كانت الصّخرة دليلي إلى البيت وكنت أخشى عليها وأحتاجها أكثر من حاجتي إلى البيت، كانت عتبة الفرح والسعادة، حتى شكلها العشوائي المميز كان أهمّ قيمةً من الحجر المصقول، الآن لم تعد الصّخرة في مكانها، وتحوّل تراب الشّارع إلى زفت ومكان الصّخرة إلى رصيف ضيق لا يقف عليه اثنان، أمام الباب استدعيت كلّ سنوات الطّفولة والشّباب التي سحقتها الأماني والأحلام فقط، عودتي لم تكن عودة الضالّ، بل أوْبةَ الرّجل الذي غُربل فوقه الماء، لم أشعر بالبلل في موقفي المقدّس، الباب بقي على لونه منذ سنوات، تمّ تقليص طوله بفعل صعود الشّارع بعد استحداث الرّصيف، أردت أن أعيد العمليّة التي قمت بها مرارا لدى الفراغ من كلّ خيبة، لم أطرق لأنني أتصوّر أن قدّيسا تطهّر سيُفتح له الباب من تلقائه، وحصل معي الأمر إذ يفتح أخي الباب، ينظر إليّ كأنّي غير موجود ويخرج، لا يعرف القداسة وهذا جيل لا يحترم الكرامات، أدخل صامتا فلا أجد أحدا، الجميع كانوا

خارج البيت في هذا الوقت المتأخّر، بعد جولة سريعة تحرّيت خلالها ما يمكن أن يكون قد حصل في غيابي، لجأت إلى غرفتي التي ترتاح مني، فتشت عن المرآة المكسّرة التي تركتها فلم أعثر عليها، كانت تلك إحدى أعظم خيباتي على الإطلاق بعد حلق شعري، القهر الذي أصابني أتى على قداستي، خرجت ودخلت إلى البيت في سرعة أربكتني، أين تكون المرآة؟ الأكيد أنّ أمّي قد رمتها، أسرعت إلى مخلفاتنا الفقيرة، لم أعثر عليها لا أثر لوجهي هنا! شعرت أني سأنفجر أو أموت الآن بالسّكتة القلبية.

يقول الرائي: كنت تريد أن تضيّع المرآة لكي لا ترى وجهك فتصاب بصدمة، كنت تتمنى أن تكون في مكان لا تصله عينك فتنسى أنّ لك وجها، كنت تتمنّى لو أن الناس تنظر إلى داخلك وليس إلى وجهك المشدوه والمشدود على الدوام مثل علامة استفهام، غير أنّك أنت نفسك لم تفلح في ذلك، ولا مرّة تمكّنت من إلغاء فشل ملامحك والتفوّق عليها بداخلك الذي تدعو إليه، لو أنّك وجدتَ المرآةَ لانتهينا هنا، لكن حظّك كان يدفعنا لنواصل، ورغم ذلك ستظلّ متأكّدا من أنك بلا حظّ وأنك تعيس ومسكين، حتى وأنت في لحظات النشوة والتفوق، حتى وأنت تعتقد أن كراماتك ستكون ككرامات الرّجل الذي سمتك جدّتك عليه، لم تكن تعتقد أنّك محظوظ.

تذكّرت.. وأنا أتحوّل إلى مشروع شيخ يُزار لوافر بركاته.. حادثةً قد تكون لها علاقة بالجذب الذي أعتقده الآن، تذكّرت يوم تكسّرت مرآتي بسبب غضبي من السّعدي، أقصد يوم كسّرت مرآتي، كان ذلك أقسى ما يمكن أن أقوم به تجاهي، أشبه بالانتحار، لهذا فقد اقتنعت في أوّبتي تلك أنّي جئت من موتي، وأني بعثت من رميم، عندما أخفقت في الصّراخ بوجه السّعدي كان عليّ أن أنفجر في وجهي، للوجوه حكايات غير التي نعرفها عنها، أنا لا أعرف كلّ حكايا وجهي، ولا أعرف إن كنت قد أدركت كلّ

الذي بيني وبين هذه التفاصيل، طالما كنت مصدر سخرية بسبب نحافتي ووجهي الطّويل، لكنّ ذلك لم يكن ليؤثر فيّ يوما، السعدي هو من انتفض لأيّة سخرية مني، ولعلّه قال أكثر من مرّة بأني وسيم للغاية ليجاملني، كان الأكثر وسامة والأكثر حقدا على وسامته، اعتبرَ ذلك علامةً سيّئةً، لا تتيحُ له الوجهَ الشريرَ الذي يصبو إليه كلّ أطفال حيّنا، واعتبر الأطفال الأقل وسامة والمشوهين –على قلتهم في حيّنا– أبطالا حقيقيين أو مشاريع أبطال خارقين.

ربما يكون ذلك أحد أهم الأسباب التي دفعت بأمّي أن تتلف الكثير من الصّور التي تظهرني بشكل أقرب إلى الطّفل الأبله، ولهذا فإنّي أتذكّر بعض المواقف التي التقطت فيها صورا لي، إلا أني لم أر أبدا تلك الصور، كان وجهي عقدة لأمّي، لكنها تغلبت على ذلك لاحقا، ولم يعد الوجه ما يؤزّمها بل صاحب الوجه، أمّا أنا فلم أنجح يوما في تجاوز شوقي إلى وجهي وأنا طفل، أردت أن أتلمّس براءتي لتشفع لي، تمنّيتُ لو أنّ أمي أو أبي أو أيّ كائن من حيّنا المطحون، أو من أقاربي المستسلمين، أخذ لي صورة وخبّأها، تمنّيتُ لو أنّ شريط فيديو لطفولتي منحني فرصة حبسي في تلك اللحظة المنسية، تذكّرت حظّ فطيمة، لقد كانت تملك الكثير من الصّور، إذن لم يكن لي أيّ وجه للبقية.

في المدرسة منحني أحد الإداريّين صورةً من ملفي القديم، خبّأتُها لأنه منحنيها بكثير من التهكّم، والحقيقة أنني لم أرَ فيها إلا طفلا بريئا، ظلّت تلك الصّورة مخبّأة، وشكّلت محور إعجابي لولا أن حياتي مرّت بالكثير من مراحل الأسونة والسّذاجة والأحلام وأحلام اليقظة، ولم تمرّ إلا بالقليل من لحظات التقدّم والبناء، فقد أحرقتُ الصّورة الوحيدة التي بقيت لطفلي الذي كنته، تعمّدت ذلك لأسباب تتقاطع مع الخرافة لا أعلم

كيف تمكّنت من حرق ذلك الوجه الطّفولي الذي انتهى سريعا في نار حاقدة، كنت أتأمّل ذوبانه ولا ألوي على شيء، ما يزال شكل الوجه وهو يفقد وجوده ويذوي ماثلا أمامي، الكسور التي تصيب وجهي والفراغات التي ترهبني أقل قيمة من اختفاء ذلك الطّفل. تلك الجريمة تحيل على جرائم أكبر، أعدّها كبيرة أمام قتل السعدي.

كسّرت المرآة عندما جاءني السعدي ليلة ليؤنّبني دون سبب، انطلق في توبيخي كأني الخائن الأعظم، ولم أفهم إلى اليوم لمَ كان حاقدا كلّ ذلك الحقد وقاسيا عليّ كل تلك القسوة منذ عودته، التهمني التفكير في شأنه العجيب دون جدوى، عندما غادر وقد أفرغ كلّ شحنات الجنون والعبث والثورة على ملامحي الهشّة لم أجد ما أفعله، سحبت المرآة من تحت السرير وألقيت على وجهي ألف لعنة، كان يستحقّ كلّ ذلك وأكثر، يومها لم أكن على قدر من العقل فقبّلتُني وعانقت المرآة التي تصوّرت دائما أنها تحفظ وجهي رغم فراغاتها، لم أكن في حالة هدوء إلا في ظاهري، في الباطن كنت أتأجّج مثل بركان، ينقصني أن أنفجر لأهدأ إلى الأبد، لكن فرصة انفجاري تراجعت والوجه الوحيد الذي يستحقّ أن أنفجر عليه الآن هو نفس الوجه الذي انفجر عليه السّعدي منذ نصف ساعة واصفا إياه بالأبله والمعتوه والسّاذج، الوجه الوحيد المتاح في هذا العالم والذي لا سبب لحفظ ملامحه المنتهكة هو وجهي، الوجه الوحيد الذي تتحالف تقاسيمه مع اللاجدوى والاحتقار وحتى الذّل والخزي هو وجهي، لم يعد بالوسع مواصلة رعاية الوجه لهذا كان عليّ أن أغيره أو أمزّقه أو أعيد تشكيل وترتيب ملامحه الفقيرة إلى الحياة. لطمت المرآة على وجهي بعنف، مرّة ومرّتين، في الثالثة شعرت بألم في أنفي التي وزعت ألمها على كافة الوجه.

اعتقدت أن الملامح تولد من جديد مع الأحاسيس المختلطة. دمعة قاصرة تطلّ من عيني دون إرادتي. في المرّة الرابعة لم ألطم وجهي بالمرآة، لم أملك الشجاعة لتعميق ذلك الألم، فأنزلت رأسي قليلا لتلتطم المرآة بجبهتي، وتتكسّر، فعلت ذلك بعد صراع قاس في بضع ثوان. أثناءها كان رأسي ينبطح تكريرا للعادة. وكان وجهي يدافع عن ملامح الخزي ببسالة كأنّه ورثها في جيناته، نزلت ملامحي شظايا ولم أر قطرة دم واحدة بعد هذه الجريمة.

في رأسي ستظل جريمة المرآة والسعدي على كفّ التساوي، رتّبت المرآة على سريري بشكل تقريبي دون أن أقرب وجهي منها، كأنّي أفكّك قنبلة، عندما فرغت كنت أخشى أن أطلّ على وجهي في شظايا المرآة ليس خشية على ملامحي وتفاصيل أقدم وجه عارٍ من الحياة، ولكن خشية على المرآة حبيبتي التي ارتطمت مثل سفينة معشوقة بصخرة مشؤومة، طللت بخوف فرأيت مسخا، اقتربت واعتدلت تدريجياً أعلى المرآة المستلقية على سريري العفن، كنت أنا بشكلي الحقيقي، كانت المرآة في تشظّيها أصدق، ولم تكن في موتها تخشى أن تجرحني، أرتني حقيقتي، تأمّلت ذلك الوجه المشوّه المخيف، تذكّرت أمّي وأبي وأخي وفطيمة والسعدي وعشرات النّاس ممّن قابلتهم، لم أجد سببا واحدا في عطفهم وتحمّلهم كلّ هذا الرّعب الذي يعتليني، أكنت سببا في إرهاب أحبّتي القليلين جدا؟

يقول الرائي: للسّعدي عقدة هو الآخر من وجهه، هو أيضا اعتقد أن بياضه ووجهه المرقّش وشعره الأشقر أوصاف لا تلائم رجلاً في هذا العصر، لأجل ذلك فإنّه كان يعمل على تجاوز تلك العقدة بإظهار الرّضا والقوّة في آن، كانت عقدته أقلّ حدّة من عقدتك، أنت اعتبرت أن الحلّ الأسلم هو الإصغاء

لأحاديث الجميع، وكان أن أشفق عليك الجميع بسبب وجهك وملامحه الحزينة من جهة، ولكن أيضا لأنّك تماديت في الظّهور كمسكين، كأنّ الإشفاق حالة تطهير تنزع عنك أيّ ذنب ممكن، كأنّك كنت تحضر الآخرين لاقتراف أمر ما، فيعذرون ويغفرون دون أن يواجهك أحد بفعلتك.

عندما أعدتُ المرآة إلى مكانها أسفل السّرير لم أكن أزيد أن أغادر الغرفة لكنّها ضاقت بي، اندفعت جريا إلى خارج البيت. فكّرت أنّي سأتوقّف عن الجري بمجرّد الخروج من البيت، لم أفعل أجّلت توقّفي إلى غاية بلوغ وادي ملاح أو مقبرة اليهود، لم أفعل.. اعتقدت أني سأتوقّف في وسط المدينة لأتناولَ كأسَ ماء أو لأرتاح في ساحة المسجد الكبير، لكن الجري امتدّ بي إلى غاية أطراف المدينة، طفتُ بها وكنت أشعرُ أنّ وجهي العاري الذي يلتصقُ بي قد توارى تماما وأنّي الآن مساحة دهشة لا غير، صفحة لا يبين معدنها، دائرة غير متناسقة يشكّلها الماء والزّبد والزّجاج. كان الجري قد تحوّل إلى هرولة ثمّ إلى مشي سريع قبل أن أتوقّف تماما، ولكن يديّ استمرتا في التّلويح كأنّي أجري، لم أعد أستطيع المشي، احترق حلقي وجفّ توقّفت واستمرّت يدي اليمنى في الغدو والرّواح بوتيرة ضعيفة، سقطتُ أرضاً أو شعرت أني فعلت... استلقيت على الأرض، كانت السّماء تهوي عليّ مسرعة، تقترب فأحاول أن أسكن قلب الأرض، تعيد الابتعاد، فأشعر أنّي في جوف الأرض، ظللت على هذه الحالة لدهر من الزّمن، ولم أنته في جوف الأرض ولا في كبد السماء، تعادل كلّ شيء في نظري، أصبحت الأرض والسّماء امتدادا واحدا، والزّمان ولّى تماما، والأسماء التقطتها يد الضباب، زالت الأشجار التي كانت حولي، ولم أعد أعرف إن كنت هنا أم هناك! أردت أن أتذكّر أهلي فلم أنجح، أردت أن أتذكّر الأصدقاء فلم

أتمكّن من ذلك، حتى فطيمة والسعدي.. بيتا الفرح والرّعب، لم يكن بوسعهما الولوج إلى هنا. إلى أيّ أمر كنت مرصودا؟ أردت أن أصبر على كلّ هذا لعلّي أستطيع أن أعرف ختام المشهد. تظاهرت بالتّماسك لثانية أو أكثر بقليل... لا جدوى... السواد امتصّني، لم أعد موجودا.

كان الصّوت متذبذبا... أحدهم تبوّل عليّ وشتمني. شعرتُ بالبول الحارق يسقط على وجهي شررا، عندما فتحت عينيّ كان رجلا ضخما يغادر جثتي المعذّبة التي لم يبق منها إلا أنا، وانتهت شوائبي كلّها، لكنني عندما تلمّست وجهي المبلل ببول الرّجل المغادر لم أعرف إن كنت أنا، بدا لي الوجه أكثر امتلاء وأقلّ بثورا. الرّجل المغادر مترنّحا كان عظيم القفا، لم أعتقد يوما أنه بإمكان إنسان بسيط أن يملك عنقا وكتفين بهذا العرض مع طول متاح للجميع. كنت أعرف أني خرجت من مكان ما إلى هذا المكان، لكني لا أعرف من أين عبرت إلى أين! استغرقت دقائق أتمنى أن أبكي، لكن خيبتي الأبدية استمرت. زحف الظلام على الغابة التي نفذت إليها من حيث لا أدري، وها أنا أتمرّغ فيها دون أن أصل إلى قوة تتيح لي الوقوف، غمزت السماء ببرق رقيق، سرعان ما ازداد اتساعا وكبر، انفجرت هي بمائها وأنا بجفافي، تبلّل جسمي الممدّد بلا حيلة بين شجرتي صنوبر وتحت تلة صغيرة، تبلّلت تماما. تذكّرت أمي التي تنبأت لي بغربال الماء. ها أنا رجل يغربل فوقه الماء يا أمّي، انتعشتُ قليلا وزال البول الذي غمّني وقهرني من على وجهي، في لحظة ما كنت أثق في قدرتي على الوقوف، لكنّ رجلاي واصلتا الخيانة... في البدء كانت الملامح والآن الأطراف، أنا كتلة من التخلي عني.

يقول الرائي: أمهلت نفسك الكثير من الوقت لتنتفض، اغتسلت تماما ولم تشعر بأنّك تعيش النقاء، فقدت ملامحك الأولى ومُنحتَ أخرى

بإمكانها أن توصل لعذابات أخرى، إلا أن إصرارك على الهزيمة تعمّق. ربّما ستكتشف أنّ احتقارك يبدأ من داخلك الذي تراهن عليه دائما وليس من وجهك الذي ظلمته.

زحفت أبكي ولكن بصوتي لا بدموعي، تمسّكتُ بشجرة الصّنوبر أترجاها أن ترأف بي، تمنّيت أن تعرف عن علاقتي القديمة بشجرة النبق لعلّها تحمل لها ودّا فترأف بي، كنت أسمع أنفاسَ كلبٍ يقترب، ورغم أنّ الخوف قد استعمرني إلا أنّ صوتا ما داخلي أو داخل الشجرة أملى عليّ أن الكلب ما يزال بعيدا وأنه لن يقترب مني، لكن الذي حصل لم يكن رؤية الصّوت، اقترب الكلب وتشمّمني غير مرّة قبل أن يغادرني، تحسّسني ثم همّ بالتهامي، وربّما بتقطيعي إلى أجزاء تتقاطع مع شظايا وجهي الذي تركته تحت السّرير، ريق الكلب ما تبقى ليكتمل مشهدي البلليّ الغريب، ربّما كانت يدي اليمنى أو اليسرى التي لُعقت وضغط عليها الناب بلطف موجع وغير جارح. رأيت وجه الكلب، كانت عيناه تلمع بلا رأفة، كأنه ينظر من خلف زجاجتين، لا معنى ينزل من ملامحه سوى الحقد والكره والموت. شعرت أن اتكائي على الشجرة يزعجه أو يؤجّل استيعابه لطبيعتي، ربما شعر الكلب الحاقد أنّي امتداد للشّجرة، تمنيت أن يرفع رجله ويتبول عليّ ويغادر، كما فعل الكلب الضخم منذ ساعات، لكنه ظلّ يحدّق بي بنفس النظرة، لم يرمش عينه ولا أدار وجهه، لم يكشّر ولا التهمني، ركّز في وجهي وكأنّه يشبه عليّ. تظاهرت بضعف أنّني من نسله، قلت في نفسي طالما أنا فاقد للصوت : ربّما أبدو له مألوفا بلا وجه، أملى عليّ الصوت أن أمنحه فرصة الانسحاب بتغيير نظري أو بغلق عينيّ، أغمضت عينيّ وفتحتهما سريعا فكان قد انطلق هربا من المسخ، أو فرحا لأني لم ألتهمه.

الفزع المركّز الذي امتد بي ومدّني بكلّ أسباب الجنون لم يغادرني حتى وأنا أستعيد عقلي أو قليلا منه، ميّزت المكان حيث انتهيت، كانت هذه الهضبة الحييّة جبلا في صغري، صعدتها مرارا مع السعدي وفطيمة، من هنا كنا نتجه إلى مزبلة «لازون» لا أعلم ما علاقة الأوزون الذي كنا نعرفه بثقب الأوزون؟ لا أعرف إن كان الثقب قد حصل بسبب هذه المزبلة أم المزبلة حدثت بسبب الأوزون؟ الجدير بالتذكّر الآن أنّي مشيت هذه الطّريق وأعرف اختصارا نحو المنزل، لهذا سأفعل ما بوسعي للموت بعيدا عن المزبلة، هل كنت بصدد الموت؟ فكرة ما كانت تجول بخاطري عن الوحدة التي ابتلعتني، تذكّرت أنّ أمّي رددّت غير مرّة من ضمن مجموعة حكمها «العبد الجائح حتى في موتو يزبد» كان الزّبد دليلاً على أني سأموت مفلسا.

لا أدري كيف قفزت من هضبة بعيدة في شبه غابة صنوبر إلى فراشي، ولا أعلم إن كان أثر العذاب الذي ما يزال عالقا بي قد جاء من الكابوس أم من الحقيقية! عندما أفقت صباحا، كان داخلي شوق لا يُحدّ إلى المرآة الكسيرة أسفل السرير، سحبت شظيّة تصلح لفتح منفذ للعالم الخارجي إلى داخلي، أو لفتح منفذ للعذاب الدّاخلي إلى الخارج، قرّبتها بقدر لا يسمح لي أن أتأمّل كلّ الأسئلة التي تعلو الوجه، أبعدتها قليلا فالتقطت ما وسعها من وجهي، كان ذلك الجزء البسيط كفيلاً بأن يقترح عليّ وجهي، تلك وسيلة مقدسة، أتساءل كيف أمكن البشر أن يعيشوا دون مرايا؟ ولعلّ رحلاتي الطّفوليّة تجيب على جزء من هذا السّؤال، ذلك الإنسان المنسيّ في الطّبيعة كان يخربش على الصّخر ما يتوهّمه عن نفسه، أليس الرّسم تعبيرا في النهاية عن الذات مثله مثل كلّ الفنون؟ البعض اعتقد أنّه مثل الأسد والبعض أنّه مثل النعامة، البعض كتب وصيّته بلغة أخرى برموز

وصور ولم يفهمها أحد لحد اليوم، لم أغادر فراشي رغم كلّ الدّواعي إلى ذلك، كانت رائحتي عفنة وأتذكّر أن أحدهم قد تبوّل على وجهي ولم يرحم ملامح الدّهشة والتيه التي تعلوه، وأتذكّر أن كلبا قد أعرض عني، وأنّ العرق الذي حلّ وارتحل قد خلف طبقات من الدّسم، وروائحَ غير مفهومة تتحوّل في معناها إلى موت الرّائحة بسبب تكثّفها، لن أغادر الفراش لأن أحدهم يصرخ بذهني «ما الذي يحصل عندك؟» وآخر يجيبه «ما الذي يحصل عندك؟» وأنا أصيح «فرويد أنت الذي خرّبت عقول البشرية بتحليلك التافه»، لم أجد سببا لتفرّغ النّاس لتحليل نفسيتي في الشّارع والبيت والمدرسة منذ الأبد، «ناقص حنان المسكين»، «عندو زجعة من خوه الصغير»، «عقدوه والديه بالخوف عليه»، تلك بعض التحاليل التي التقطتها أذني وأنا صغير، أتساءل إن كان أحدهم يحتفظ بخلاصة قد تفيدني في الذي أنا فيه؟ هل نسيني الجميع بسبب فشلي الحيوي والمتكاثر، هل يتذكّرون أني قتلت السعدي؟

يقول الرّائي: تلك اللّعبة التي أدمنتها أنت والسّعدي في الصّغر كانت حقيقة، كنت تقف معه على قارعة الطّريق تتأمّلان العابرين، وتقيمان احتمالات للناس حسب ملامحهم وأقفيتهم، فكلّما مرّ شخص تناقشتما في شأنه، ولعلّ البداية كانت مشجعة لأنكما أصبتما بعض الحقيقة واكتشفتما أن القّفا والوجه علم حقيقيّ، وها أنت تمارس علمك بينك وبين أوهامك، في ذلك اليوم بدأت مشروعا أخذ منك الكثير من الوقت، قرّرت أن تشرع في رسم ثلاث لوحات لك ولصديقيك ولكم مشتركين، استاءت أمّك كثيرا لأنك خدشت جدران الغرفة، لكنها التزمت الصّمت عندما تأكّدت أنّك لن تستجيب لتعليقاتها، لم يتذوّق أحد فنّك السوريالي، حتى أنت نسيتها سريعا ولم تعد تتأمّلها أو مفتونا بها كما أول مرّة.

الوجه والقفا، أيّ وجه لي الآن؟ وأيّ قفا كان للسعدي؟ قفا السّعدي وهو يلتفت يجعلني قاتلا جبانا، كانت رسالة قويّة تضيء من عينه الخضراء قبل أن يلامس خنجر التاقية قلب ابنها، أما أنا الآن فأتذكّره بكثير من الحبّ أكثر مما كنت أفعل في حياته، أصبح أقرب إليّ وأكثر فهما لي.

8- مأدبة القديس

الجلوس إلى السعدي مجدّدا هديّة من الله، فجأة امّحى كلّ الكابوس وعدنا مجدّدا، يحتفي بي الكثيرون دون مناسبة، أتلقّى تحايا من الجميع كأنّهم يكتشفون وجودي، الشظيّة الأكبر من بقايا مرآتي قالت لي ذلك المساء أنّي من كان مختفياً داخل أوهامه، أخبرتني أن الجميع حيّوك دائما لكنك لم تكن في أرضهم، ربّما التقيت كلّ تلك الابتسامات والوجُوه الإنسانية دون انتباه. ما الغريب في ذلك؟ يحصل أن يغوص الإنسان في دواخله فلا يلقي بالا لحديث أو لحكاية أو لشخص يمرّ بجانبه، بل قد ينسى الكثير من الأمور المصيرية، برّرت الأمر كذلك، ربّما أفرطت في حالتي تلك، استغرقت سنوات ولكنها حالة عابرة، الآن وأنا أتعاطى مع تفاصيلي الجديدة كإنسان محتفى به، أفكّر في أيّ شكل من الألبسة يلائمني، هل أرتدي لباسا رياضيا يبسط الأمر على الآخرين ويسقُط كثيرا من الكلفة؟ أم ألتزم بلباس تقليدي حداثي، فتكون القشّابية مثلا فوق بدلة أنيقة وحذاء مدبب كأفكار السعدي السابقة، ربّما يصلح لو اكتفيت برثاثتي الّتي لم تمنعهم من الانتباه إلى مكانتي، سروال جينز وتي شرت وحذاء بين بين لا هو رياضيّ ولا هو حذاء مشي.

يقول الرّائي: كأنّ كلّ السّابق وهم، ها أنت تعود إلى نقطة البداية، تصحّح الحكاية وتعيد ترتيبها كأنّك تريد أن تأخذ طريقا مختلفا عمّا كان، لسبب ما سيقفز الكابوس إلى راحتك، ذلك الكابوس الذي اعتقدت أنّ تحوّل حياتك كفيل بأن يحجمه، عاود الصّعود وأصبح أكثر تكرارا. ها أنت تلتقط الخنجر مجدّدا وتهوي به على رأس نيوتن المنسقة، افتتانك برأس نيوتن جعلك تتحاشى الحديث عن الرؤوس، فكلما قيل رأس أصبح

نيوتن هو المعيار، أكبر، أصغر، أطول، أجمل من رأس نيوتن، تلك هي الإشكالية. كان أستاذك الذي ظلّ يحتفي بنيوتن ويحتقر جنسه لا يعرف عن الجاذبية أكثر ممّا تعرف، فلم يشرح شيئا منها، ولا حكى عن نيوتن الذي شغله. أصبح ذلك الأستاذ أقرب إلى المعتوه وهو يكرّر صباح كلّ ثلاثاء نفس الحكاية لعام كامل، ثم لباقي السّنوات على الطلبة اللاحقين، كأنّه ينسى بل هو ينسى فعلا أنه حكى عن نيوتن وعبقريته، وعن التفاحة التي يفكّر أيّ عربي في التهامها. كنتَ تسأله كلّ مرّة لماذا انتظر نيوتن سقوط التفاحة؟ ألم يكن شاهدا على سقوط شيء آخر فيما سبق؟ وكان يقول لك «اخرس أيّها المعتوه». فتصمت وأنت تستغرب من قدرة زملائك على إبداء الاندهاش من حكاية نيوتن كلّ مرّة كأنهم لتوّهم يسمعون عن الجاذبية، وهم أكثر البشر خضوعا لها.

كان السعدي يتكلّم في موضوع ما أو كانت فطيمة تتكلّم. كلاهما ضحكا بصوت سحبني مني إليهما، ابتسمتُ وهززت رأسي كأنّي معهما وسرعان ما عادا ليغيبا وعدت لأتذكّر، عندما قتلت السعدي كيف انسحبت من الحياة ومني؟ بعثني هو بعودته إلى الحياة، كنا اثنين في قدر واحد، لو مات لكنت ميتا، ولأنّه حيّ أنا كذلك.

فرحت كثيرا وأنا في بيت المالك الحزين، فرحت لأن الكائنات التي لم يعد يراها السعدي كانت تتأمّلنا في سعادة كبيرة. أشعر أنّ اجتماعنا ذاك شكّل في نظرها احتفاء بسيدها المالك الحزين، تملّكتني سعادة مفرطة جعلتني أغوصُ في اللّحظة. الفرح الكبير يُخرج من أسباب الفرح، لهذا لم انتبه إلاّ وطاولة الأكل تجهّز وصوت فطيمة يناديني للّحاق بهما، كان السّعدي وفطيمة جالسين في حبّ كبير، بعد أن عدت ووجدتهما قد تزوّجا، بدا لي أنّهما تصرّفا في البداية وكأنّهما يشعران بأنهما غدراني، أحدهما

يخفي عن الآخر مرارة من انفراده به دونا عنّي، أنا أيضا أخفيت شعوري بالإقصاء. كنّا ثلاثة والآن نحن اثنان معا وواحد وحيد.

عندما ابتسمت وعبّرت عن سعادة -لا أعرف إن كنت قد شعرت بها- اشتعلت عين فطيمة أما السعدي فكأنه لم يعجبه موقفي ذاك، لا أدري لماذا يريد أن نتصادم دائما؟ تمنّيت أن يكون زواجه من فطيمة يتعدّى كونه زواج إصلاح لسقوطه يومذاك، وألا يكون رغبة في تعذيبي فقط، خاصة أن فشل السعدي سيكون أقسى عليَّ من عذابي، ثم إن العذاب لم يعد له معنىً واضحٌ، لا طعمَ ولا رائحةَ، فطيمة كانت تقفز فرحا كأنها تريد أن تخبرني بأنّ صديقي أروع هدية لها، لكنّه لم يرسل إشارة في هذا الاتجاه، كأنّ صديقتي ليست هبة لا تضاهى، هذا الوضع جعلني أطمئن قليلا، ربّما هي تكتشف كيف تكون زوجة بعد سنوات الجحيم مع الأسد الوهمي صالح بطاطا.

ما زلت أتذكر كيف ظلت أمي تتحدّث إلى فطيمة بأسلوب خاص، كانت مقتنعة أنها كنتها المستقبلية، أرغمتها على مساعدتها وعدم اللّعب معنا، فعلت معها ما لم تفعله أمها، وعندما تزوجت من صالح بطاطا بكت بحرقة ولم تحضر العرس.

يقول الرّائي: لم يكن بوسع أمّك أن تنجب بنتا، كانت ترّد «ربي ما حبش»، أما والدك فكان يدعو الله كلّ يوم ليرزقه طفلةً، ويكفّ بعدها عن الأطفال، طفلة واحدة تكفي، كنت تنتمي لعائلة غريبة في عاداتها الإنجابيّة، كلّ سكان الحيّ يتجاوزون السّبعة والثمانية أبناء في سنوات قليلة، إلا جدّك ووالدك، اكتفى كلاهما بابنين، ثمّ علّقوا الأمر على المكتوب، في الحقيقة لم يؤمن جدّك ولا والدك بأن الأمر يحتاج إلى طبيب، المرّة الوحيدة التي قام فيها جدّك بالبحث عن حلّ كان بعد مولد أبيك بثلاث سنوات، يومها

زار مقام أحد الصالحين، ذبح ديكا بعد أن بصق في فمه! وانتظر أن تنتفخ بطن جدّتك وزوجته الثانية دون جدوى، عمّتك التي أنجبت صليحة وابنا آخر لا تعرفه، اكتفت بصليحة لأنّ الابن مات باكرا، هكذا تأكّدت أنت أنك لن تكون أبا لأكثر من طفلين إن كنت محظوظا، وباعتبارك أقل حظا من كلّ أهلك فإن احتمال حصولك على زوجة أقرب إلى المستحيل.

في مأدبتي التي دعاني إليها أحبّ شخصين عرفتهما بعيدا عن العائلة وصلة القرابة، كنت أستعدّ لآكل للمرّة الأولى بتلذّذ، أعجبني شكلُ الإجاص الذي كان يمتطي أقواس الموز في استهتار، أحبّ هاته الفاكهة الأنثوية، أحبّ طريقتها في قبول التهامنا لها، في الحقيقة لو أن الفاكهة التي سقطت كانت إجاصة لكنت أنا نيوتن، فأنا أفهم جيّدا الجاذبية مع الإجاص، أردت لو أني أبدأ الآن بالتهام الاجاص، لقد نسيت حبي لفاكهتي التي ارتبطت بفطيمة، لا أدري كم سنة مرّت لم أذق خلالها الاجاص، واستسلمت لكابوس سقوط التفاح، يبدو أن الفترة تجاوزت القرن، تمتمات فطيمة والسعدي وغمزاته المحذرة من أمر ما، واستفهاماته المتكرّرة، كلّ ذلك جعلني أعود إلى التركيز معهما، قفزت سريعا من مكانها تجمع الصّحون التي لم تنتهك من قبلنا، كأنّ جلوسنا كان لعقد صفقة وليس لوجبة حميمية، السعدي يبتسم فيبرز فراغ السن التي أتيت عليها، تركت فيه أثرا يذكرني بي يذكّرني به، ابتسم بينما أغوص بذاكرتي نحو لحظة فارقة عشتها مع فطيمة، كنّا نلعب صغيرين بالنار، أليست النّار لعبة مهمّة في ذاكرة أطفال الأحياء الشّعبية؟ أحرقت كومة أوراق وبلاستيك ولهونا بدخانها، حملت ورقة وحملت هي أخرى ولكنّ اللّعبة اتسعت وحملت هي قطعة بلاستيك نبّهتني إلى تقطّرها، راق لي الأمر ففعلت مثلها، يد آثمة دفعت القطعة الملتهبة من يدي بعد أن طالتني نارها، رميتها فاحتكت

بساق فطيمة، كان صراخها وتألّمها موجعين شعرت أني تسببت لها بألم مجانيّ دون مناسبة، ظلّت تلك الحادثة بمثابة ذنب عالق في ذهني رغم أنها نسيتها سريعا، وخلال أيّام بدأت تتحوّل إلى أثر مميّز، أمّا أنا فقد اهتممت بها كأنها انجاز، وتحوّل الإحساس بالذّنب إلى نوع من الفخر، لم يكن الأمر شبيها بالأختام التي يضعها الموالون على ماشيتهم. ليس ختم العبيد الذي يطبعه السّادة، كان أقرب إلى اللّطخة الفنية العبثية التي تأسر، كنت أتأمّل تلك الإصابة التي اقترفتها عفويّا فتحوّلت إلى لطخة جمال على ساقها الجميلة، خلال السّنوات التي لحقت كنت أتمنّى أن أرى ساقها في كلّ وقت، كان ذلك أحد أهم انجازاتي وسيظلّ. لم أعرف كيف أعود بها إلى تلك اللّحظة التاريخية، قلت للسعدي: «هل تذكر يوم أحرقت فطيمة؟» لكنه قطّب حاجبيه وحدجني بنظرة تلقي بي خارج عالمهما، لم يكن قد وصل إلى الحيّ ولا إلى المدينة، ولم يكن يعرف بوجودي لكنني سأمنحه تأشيرة العبور إلى فطيمة، ولم يحلم يوما بأن تكون له زوجة، الآن وقد أصبحا زوجاً وأنا وحيدا، الآن وقد قذفت بي الأقدار مجدّدا إلى خارج الجاذبية الإنسانية، الآن أكتشفُ أني كنت محقّا عندما شجبت رأس نيوتن وأنهيت احتمالات الجاذبية، الآن وأنا في الوحدة نافذ مثل سلطان في مملكته، الآن وأنا مخلوع ومفزوع ومنتبه إلى التشظي كوجهي، الآن فقط أكتشف أيّ دور كان لي في حياة السعدي وأيّ فضل كان لي عليه، لم يمت السعدي على يدي، ولم أكن قاتله يوما، لقد جُرح جرحا خفيفا وطاب، أمّا أنا فقد ورثت كلّ جروح العالم ولن أشفى أبدا.

كنت ما أزال أمارس التقوقع ذاته، ولعلّ صدفتي التي اعتدت أن أسكنها كلّما اقتضى الأمر قد بدأت تصاب بفراغات المرآة، فقد كنت أغادر مضيفَيّ، وأعود لأجد لقطةً أو مشهدا أو حركة قد حذفت دون علمي

بالتفاصيل، اختلّ الفيلم هذا المساء، ولم أعد أعي من تفاصيله شيئا، في آخر عودة لي كانت فطيمة تبتسم لي وتغادر حاملة حقيبتها ويتبعها السّعدي الذي يكون قد أشار لي أنّه سيعود بعد قليل، انصرفا لتبيت هي ببيت الحاج بورقيبة والدها، وعاد هو بعد فترة قصيرة، ليفاجأ تشتّتي بقامته الواحدة وظلّه الواحد ونظرته الصّلبة مثل غابة بعيدة، لم أكن أعرف هذا السعدي ولا السعدي الذي قتلته، لقد أضاع الرّجل جوهره وأضعت، لم يعد بيننا إلا أسام وظلال وأطلال أمان. وقفت أتحاشى النظر إليه وهو يتحرّش بعينيه ضعفي، أردت أن أنسحب من المكان والزمان وأنخرط في صدفة التيه، لكن سؤالا قاصفا أو رجاء قاهرا جاءني من السعدي «ريّح يا راجل نباتو مع بعض ونتفكروا أيام الصغر»، جلست قبل أن ينهي الأمير أمره، ألست في مملكة المالك الحزين؟ إذن فهو الآمر الناهي وأنا الرعية. كانت تلك اللحظات أثقل من أن تمرّ، ظلّ جالسا أمامي وأنا أغرق في نظراته وفي الكرسي المعوّج إلى اليسار، أريد أن أبدو معتدلا، فيؤثر ذلك على قدرتي على صلب جسمي المقهور، مرّ عمرٌ ولم نحك كلمة واحدة. هو يدخّن وأنا أتأمّله، منحني سيجارة فتردّدت في قبولها، لكنني لا أملك إرادتي، أخذت السّيجارة وتركتها ترقص قليلا بين أصابعي، تجاذبتني إرادتان، إرادتي المجزوءة في رفض السّيجارة طالما أنا رجل لا أدخن الآن، وإرادة السعدي التي بدت أقدر في مشاركته التدخين. تقدّم بالولاعة من وجهي ورأيتني غريقا في نارها التي اتسعت كثيرا، لكنني لم أهرب وقاومت خوفي وفزعي وأشعلت السيجارة... النفس الأول لا ينفذ إلى أحشائي، أنفخه في الهواء هدرا للدخان، وتبقيني السّيجارة في غدوّ ورواح بين المرمدة الفخار ومكان جلوسي، أنفضها دون أن أقرّبها إلى فمي، سألني إن كان نوع السّجائر لا

يعجبني، فابتسمت وأخذت نفسا ثانيا، هذه المرّة كان عليّ أن آخذ الدخّان في رحلة سريعة خيالية عبر منافذ صدري، ليتني أستطيع أن أفعل، أن أنقلب في رمشة عين وأغوص في داخلي، لحظتها لا أحد يعرف كيف يصلني أو يصل إليّ، ولا حتى السعدي، كأنّ السعدي اطمأنّ إليّ وأنا أدخن، قام من مكانه وحضّر قهوة سريعة لا تشبه قهوة خالتي التاقية الغائبة في قريتها، لتحقّق لابنها العريس حرية أكبر. كان بوسعي أن أشرب القهوة وحسب، لكنه أعاد اقتراح سيجارة أخرى، وتحجّجت بضرورة الذهاب إلى الحمام، نهضت أعرف طريقي في بيت نشأت في أركانه، لم يكن المرحاض في مكانه، تغيّرت معابر المملكة بعد الملك الجديد، في مكان المرحاض كانت هناك مرآه بطولي، أبهرني أن أرى ذلك، وتساءلت عن الغباء الذي منعني أن أجعل كلّ جدران غرفتي مرايا، استدرت وعدت أدراجي لأسأل السّعدي عن المكان، لم يكن حيث تركته بالمطبخ. وجدني على كرسيه بالمطبخ، ووجدته في مكان ما. هذا يشبه تفسيرا لعلاقتنا.

يقول الرّائي: كان صديقك يفتقدك في حضورك، وكنت تبحث عنه في غير وجوده الحالي، مضيتما في طريقين وتقاطعتما غير مرّة، كأنّكما تجهلان حاضركما. هو يفتّش عن دليل في ملامحك إليك. وأنت تنشده في جهة ما، هكذا لم تلتقيا، فكلّما كنت في مكان غادره هو ليرى إن كنت موجودا حقا، وكلّما وجدته شككت إن كان هو فعلا.

عاد السّعدي وقد غيّر ملابسه وكنت قد بخّرت الهواء بسيجارة لأبدو لويث مالك الحزين مطيعا. لا أعلم إن كان جلوسنا في بيت المالك الحزين وعلى سريره بطلب من السّعدي، أم أنّ كلانا مضى في اللّحظة نفسها وبخطى متقاربة إلى المكان. لا أعلم إن كنا قد تحدّثنا أم أنّ غاية

الحوار كانت نظرات مشبوهة وغير مطمئنة منا معا. هزّ السعدي السرير، وكنت على استعداد لأطلب المغادرة لكنه رفض، شعرت أنّي في أسر ولست عند صديق، رفض طلبي بعنف وأمسكني من يدي، سحبتها وهممت بالانصراف عندما التقطني مجدّدا ودفعني إلى الغرفة. كنت أشعر أني مجرّد من القوّة والإرادة، حتى فكرتي عن الخيار ضمرت بحيث لم أتبيّن لي معنى، بم كان يفكر السعدي؟ استجبت إلى عنفه واندفعت أكثر مما ينبغي إلى قلب الغرفة، بيني وبين هذه الغرفة مودّة لم تعد بيني وبين وريثها. لا أشعر بالغربة التي تعمّق الخوف، على الأقل أكتفي بالإغراق في إبداء خوفي دون مقاومة الغرفة. لعلّ نظرات السعدي لم تكن قادرة على جذبي من انسحابي الذي أصبح حرفة أتقنها كلّما اضطرتني المواقف إلى ذلك، أحيانا كنت أفعل دون سبب واضح وأغيب في مدى من الفراغ، في لحظة ما رأيته يهجم عليّ بسكّين. أردت أن أعود إلى الواقع فأجده جالسا في مكان ما وأنا أتوهّم، من أين يأتي هذا الإيهام؟ أعرفُ هذا المشهد تماما، لكنني كنت صاحب السّكين والمهاجم لا المُهاجَم، وكنت المجرم لا الضحية. أشفقُ على الأمير الذي لم يرث حزن أبيه من جريمة لا سبب وجيه لها. أعرف هذا المشهد أكثر مما يتوقّع السعدي، خلال اقترابه السريع كانت تجتاحني راحة كبرى من كلّ الجهات، ورغم أنّ الفارق بين لحظة انطلاقه ولحظة وصوله كان كافيا لتحديد موقفي من هذه الحياة، إلا أني تركته ولم أبثه لأحد. لمعت من عينيّ وصيتي، لقد كان خطابي إلى الحياة واضحا «أنا أرفضك شكرا على أيّ حال ووداعا»، درجة الرضا والقبول التي اجتاحتني لحظتها كانت قياسية. ارتمى عليّ صديقي، غرس سكينه في جهة القلب، الحرارة كلها اجتمعت عند مدخل السكين، وتصاعدت كأنها روح تفرّ من جسدها عبر ثقب الخلاص ذاك، هكذا يكون السّعدي صاحب الفضل على

روحي. كنت قاتلك صرت قاتلي. أردت أن أقول له هذه العبارة لكنه لم يقل شيئا عندما قتلته لهذا فقد تركت جسدي ينساب عبر قامته، وسقطت أرضا أتعصّر بينما أركّز نظري على وجهه الذي اتّضحت ملامحه، كان بوسعي أن أستعيد كلّ اللحظات التي مضت بيننا، ضحكات فطيمة وجريها عبر شوارع ديار الشمس، مراحل نموها منذ وعيت إلى.غاية دقائق قبل موتي، صور السعدي قاتلي الحبيب المتعددة وصوَري معه، تداخلت الألوان والأشكال والأسماء والصّفات، تداخلت الحالات واللحظات والأحاسيس. اشتقت فجأة للجميع بدرجة جنونية لا تقاوم، اشتقت إلى أبي وأمّي وجدّي وعمّتي. أردت أن أمرّر يدي على رأس شقيقي، طالما حلمت بذلك. أشفقت على خالتي التاقية وهي ترى ابنها مدانا بقتلي بعد أن يتشرّد في قرية أخواله وأعمامه ويعود ليلج الحيّ عبر مقبرة اليهود، ثمّ أخشى ألا يتحوّل إلى قديس، ليته قتلني في مكان آخر فتبعد عنه التهمة، وليتني أشهد الآن شخصا أيّ شخص لأحدّثه بأن قاتلي آخر. كان السعدي ينصرف ملتفتا بينما لا أفهم أنا وضعي في غياب الجميع، الوحدة التي عانيت منها في دواخلي تحقّقت في هذه اللّحظة الفارقة من حياتي أو من نهاية حياتي، لا أحد يؤرخ لموتي إذن! كنت أنتظر أن أموت دون جدوى، إستغرق احتضاري أكثر مما توقّعت، وغاب عني جسدي تماما ولعلّي غبت عنه لكنني متأكّد أني لم أمت. انتقلت إلى العالم الذي أتحدّث منه دون عذاب، دون ألم، دون شعور محدّد، أردت أن أتذكّر اليوم والساعة لكنني لم أجدهما، أردت أن أشعر بالزّمن فلم أعثر عليه، عرفت أن الزّمن هنا مثل مقبرة اليهود تماما، لا يختلف إلا في كونه بلا لون، فالزّمن في المقبرة اليهودية له لونان لون نهاري وآخر ليلي، وهكذا يتم الفصل بين الزمن بوقتين ليلي أو نهاري، مع تفاصيل من قبيل ليلي جدّا، أو نهاري أميل إلى اللّيلي، أو ليلي خافت،

أو غير ذلك. هنا لا يوجد فاصل والأمر يبدو أزليًا. في البداية اعتقدت أنّي معزول عن العالم الخارجي وأن علاقتي به قد انقضت منذ انفصلت عن جسدي. لكنّ حضور جيش من الناس لحملي والأصوات المتداخلة وصياح الشّارع، كلّ ذلك أكّد لي أني لم أنفذ تماما إلى حيث يجب؟ بدأ السؤال يلاحقني هنا في هذا الفراغ.

إدريس...إدريس...

ما زلت أصغي لندائهم، الجميع كانوا يذهبون ويعودون. عرفت الكثيرين ولم أتمكّن من اكتشاف عدد منهم. أحببت أصواتا بعينها وانقبضت لبعضها، مثلا الصّوت الذي ظلّ يهدهدني في وقت ما كان صوت أمي وهي تحدّثني عن مرآتي المخبأة في مكان آمن! تساءلت إن كانت المرآة التي تكسّرت مزوّرة؟ أم أنّي توهّمت أنها المرآة الأصلية، لم تغادرني أمّي طوال ليلة كاملة وربما يوما كاملا ولعله شهر أو أقل من ذلك، لم أفهم تحديدا أن الزّمن لا يقاس إلا بالأشياء والأسماء والأماكن. أن الجسد ضروري لتحديد مسافة من الزّمن، رغم أن مجال الأحاسيس محدود لا فرحة عظمى ولا يأسٌ قاتل، لا حبّ ولا حقد. إلا أن حديث المرآة جعلني أتمعّن في الحكاية. ترى ما الذي كان سيحصل لو أني عثرت عليها؟ أجبت سريعا أنني كنت سأكسرها أيضا، كان العالم الخارجي أقرب إلى المنطق والعقل من هنا، لهذا ظلّ أبي يدعوني إلى تأمّلي من بعيد لأكتشف مدى فظاعتي. صحيح أني لم أكن أرى إلا بشعوري المقيّد لكنني نجحت في الهدوء للمرّة الأولى، أنا لست قتيلا، ربّما كلّ الذين سبقوني إلى هنا لم يكونوا عصبيين. الطبيب الذي يردّد كلّ مرّة أنني لا أستجيب يتهمني بالعنف، لا أفهم

كيف لروح بلا جسد أن تكون عنيفة، لا أفهم أين قرأ ملامح العنف على وجه احتفى به الغياب؟ كنت أتمنّى أن أعي معنى رفضي للعودة. كنت أتمنّى أن أعرف إلى أيّ مكان يجب أن أعود وأين أنا لأعود؟ لا حيلة لي سوى الإصغاء إليه، أحيانا كان يشكو من رفضي التعاطي مع العلاج، يقول أني أهدأ عندما يتمّ حقني وأعود إلى عبثيتي مجدّدا، لا أعلم إن كان الدكتور يهذي أم أنّ جسدي معه وقد سكنته روح شريرة في غياب روحي؟ ربّما تصرّفت كائنات مالك الحزين بي، لا يهمّ، ما من شيء مهم.

فطيمة، أمي، أبي، جدّي، أخي المارد البريء الذي طُرد من المدرسة ويريد أن يصبح فرّانا، السعدي، خالتي التاقية وعمتي كلثوم، مالك الحزين وبورقيبة وحتّى صالح بطاطا، الجميع كانوا يتوافدون على ذاكرتي دون أن أحقد أو أحب، كنت على مسافة واحدة من الجميع، ولأني أعرف داخل داخلي وأنا المضمر هنا أن حبي لفطيمة لا يحتاج إثباتا، وأن تعلّقي بالحياة كان جنونيا لدرجة لم ألقها قط، صوت ما اتفق لي أن اسميه طبيبا ،كان يؤكّد في كلّ مرّة أن بعض الأشخاص يحقّقون هدوئي وبعضهم يجعلني أثور، وأنا رغم أن داخل داخلي يحدّد ما يشبه المواقف إلا أني لا أبالي بالأصوات التي أسمعها.

إدريس... إدريس...

آخر نداء كان للسعدي، ربّما لم يعرف أحدٌ أنه قتلني قبل أن أنخرط في هذا العالم اللامرئي واللارائي، لم أخش السعدي، لا أبدا لم يخفني، كان برفقة فطيمة، لا أحتاج إلى سماع صوتها فهو كان يطلب منها أن تقترب لأني لن أفعل لها شيئا، لا أعلم إن كانت أمي التي تبكي الآن ويصبّرها

السعدي تعرف أنه قتلني بعد أن قتلته، لا أعرف إن كانت تستوعب تماما أني متّ قديسا.

فكّرت في غيبوبة الجسد وامتداد الرّوح في البعيد القريب. فكّرت في الفاصل بين الموت والحياة والفضاء القطني الذي استعمرني أو استعمرته في علاقة تبادلية ومنفعية، كان هو يحتاج إلى روح معذّبة ليرحمها، وكانت روحي كسيرة، لدرجة أنّ أيّ عرض مهما كان باردا كان بوسعه إغراؤها.

في العشاء الأخير أردت أن أرى غربال أمي الذي هدّدني بسربل الماء، أردت أن أنتعش أن أغتسل، ولم يكن مثيرا أو موجعا، لم يكن غبائيا أو من الحذاقة بشيء أن يكون مصدر الماء غربال أو دلو أو حنفية، في العشاء الأخير كنت خفيفا ومعافى، وفي العشاء الأخير التقطت لي صورة تكاد تكون صورة نجم أو رجل ناجح قاد معاركه كلّها بدهاء ثم مات دون أن يجد شاهدا على نهايته العظيمة.

لا شاهد لي، والرّائي لم يعد بإمكانه البقاء لأني أصبحت أراني من مكان آخر، لأنّي خرجت مني أو غصت فيّ فلا داعي للرائي. أنا الرائي والرؤية معا.

صوت ما قال لي: «لكن نيوتن لم يمت بعد» لهذا تذكّرت الاجاصة التي لم ألتهمها بعد.

لا تسخر أبدا من وصيّة معتوه

-4-

الواحدة صباحا، من يوم جديد، وأنا أدخل الأسبوع الثاني من سنتي الأولى بعد العشرين، الحركة خارج غرفة شقيقي ما تزال بالوتيرة نفسها، أصوات تتداخل ومعزون لا يؤجّلون حضورهم، وبكاء غير مبرّر بين الفينة والأخرى. أتممت قراءة كتاب أخي، وشعرت أنه الفقيد وليس جدّي، انتابتني رغبة في البكاء، وربّما كنت سأفعل لولا أنّ صراخا انطلق من الخارج دفعني للإسراع لاكتشاف ما حصل، كان الجميع سعداء، لم أفهم كيف تمكن هؤلاء وبسرعة من العبور إلى السعادة بعد أن كانوا في قمة بؤسهم وأساهم لفقدان جدّي.

رُزق السعدي وفطيمة بطفل وسيم، وقد تقرّر أن يسمياه إدريس! قاتلا أخي سعيدان جدّا، كأنهما لا يخشيان من موته، كأنهما لم يفعلا شيئا، عدت إلى الغرفة وأنا في كامل السّخط، كان أخي يكتب تاريخ الحيّ من خلاله، كان شاهدا على موتنا جميعا، ولأنّه لم يقبل الموت فإن الجميع اعتبروه شخصا مريضا، حتى أنا كنت أتصوّر أن أخي إدريس مصابا بالجنون، أمّي أصرّت أن ابنها سليم، وأن الذي أصابه لا يعدو أن يكون

عينا، أو مسّاً وعلى غير عادتها تعتقد أنه قد يكون سحرا، في البداية قسا عليه جدّي وأبي واعتبرا أنّه يمثّل دور المنهار فقط لأنه فاشلٌ، بعد فترة أصبح أخي يمشي على ضفّة وادي ملاح ويجلس وحده كثيرا، ثمّ تحوّل إلى متجوّل لا يعود إلى البيت إلا آخر النهار، في هذه المرحلة ترسّم كمجنون، ولم يعد بالوسع أن أدافع عنه أمام الآخرين، فهو لا يرد سؤال أحد، ولا يدخل في حوار مع أي كان، يكتفي بطلب ما يريد من خبز أو تفاح أو إجاص، ويمرّ فلا نعرف وجهته، يدفع بخطاه إلى أيّ مكان ونحو اللامكان.

تغيّر مظهر إدريس تدريجيا حتى أصبحت القذارة والنتانة المنبعثة منه لا تحتمل، في هذه المرحلة تمّ ترحيله إلى مستشفى للأمراض العقلية خارج المدينة، وبكت أمي لفقدانه، وشعرت أنا بأنّ الجميع ينظرون إليّ كشقيق مجنون، وربّما كمشروع مجنون، لم يكن بوسع أحد زيارته، غاب لأشهر كنا خلالها نكاد ننساه، رغم أن أمّي لم تكفّ عن تذكّره وكأنها فقدت عبقريا حقيقيا، عندما عاد نظيفا ولكن بصَمته المعهود شكّ الجميع في أنّه شفي أو أنّ الجنّ الذي سكنه قد استفاد من سكن آخر، لكنه وفي غضون أسبوع عاد إلى وضعه الأوّل، لا أحد عرف كيف استطاع أن يفرّ من المستشفى وكيف وصل إلى هنا.

كان أخي إدريس متفوّقا في دراسته، وكان حادا في مواجهة الأساتذة، نذر نفسه للتفوّق حتى يتجاوز تنكيت الجميع من شكله، ولم يكن حضوره فوضويا، لكنه في فترة ما انتكس وقرّر أنّ الدراسة لا تتلاءم مع من هم أمثاله، لم ينتبه أحد إلى تفوقه، حتى الذين درّسوه شكّوا في تفوقه، لكنه في انتكاسته شغل الجميع، وتسابقوا لكي ينصحوه، تلك الوصاية التي كان يرفضها دفعته إلى الانسحاب تدريجيا من الجميع.

الآن أريد أن ألتقيه، لم يعد موجودا، مرّ على غيبته الثالثه أشهر طويلة. ربّما يعود كما فعل في المرتين السابقتين، عندما اقتيد إلى مستشفى الأمراض العقلية تمكن من الفرار، وفي غيبته الثانية عاد مهندما ونظيفا فلم نعرف إن كان في مشفى أم أنه صادف من اعتنى به أو أجبره على النظافة، اشتقت للمرّة الأولى لأخي، لم يحدث لي هذا فقد كان بعيدا عني، كان الفاصل بيننا يتجاوز ست سنوات، لكنني في مرحلة ما شعرت أني أكبره، عندما رأيت مآله قرّرت أن أنأى بنفسي عن الدراسة وجنونها، وعن الحيّ الميّت وأهله، لهذا اخترت أن أكون خبازا، وهي مهنة لا مستقبل لها في حيّنا لأن كلّ البيوت تأكل من خبز نسائها، ولا يأكلون خبز الرجال أبدا، حصل أن أوقفوا الغاز غير مرّة الأمر الذي جعل سكان الحيّ يوقدون الحطب ولا يقتنون الخبز، كانت مهنتي متعتي فهي عالم مختلف يدفع عني الحيّ،وأهله، ويضعني في مكان لا تطوله حتى أفكارهم الآسنة، كنت أعمل اللّيل وأنام النهار اجتنابا للجنون أو الانتماء لحيّ كديار الشّمس، أسمع إلى حكايات «الكواشة» الذين معي عن تجاربهم خارج المدينة كلّها وليس خارج الحيّ، يحكون عن البحر والمطاعم والملاهي، وأنا لا أفهم إن كانوا يتمنون ذلك أم يتذكرونه، وإذا حصل ووقفوا على فضاء مشابه ما الذي عاد بهم إلى هنا؟ إذن فالعالم كلّه خارج ديار الشّمس، ونحن مجموعة من الأسر الجريحة تشقى بكلّ تفان على ضفّة واد بين ثلاث مقابر وسجن في أزقّة العذاب والعفو.

-5-

تغتصب الجلبة غرفة شقيقي، وأنا لا أزال أفكّر في كتابه الذي قرأته منذ قليل، أستطيع أن أجزم أن أغلب ما قاله إدريس في كتابه أقرب إلى الحكمة، وهو أمر يدفعني بشدّة إلى إعادة تأمّل تاريخ شقيقي بإنصاف، فليس من المعقول أن يكون ما تركه أخي وغاب هذيانَ معتوه، لن أفكّر من اليوم في السّخرية منه، ليس في الفرار من نموذجه الذي عملت ما وسعني لأتحاشاه، الآن تنتابني خشية من غرفته، كأني صرت الوريث الوحيد لهذه الغرفة المأهولة بالوجوه والحالات التي لا يصلها تأويلي وتفسيري، قرّرت أن أبدأ في إعادة رحلة شقيقي، أن أتأمّل مساره بكثير من الاحترام الذي ظلّ يحتاجه على الدوام، أمّا الحيّ الذي جنى عليه فلم يعد يعنيني أبدا، ولعلّ القرار الوحيد الذي اتخذته وكان صائبا هو تركي هذا الحيّ، والنفاذ من سطوته التي كانت ستحوّلني إلى معتوه إن حاولت التميّز.

الأصوات خارج الغرفة مصرّة على المواصلة دون أن يفكّر أحد أنّ السّاعة الآن تجاوزت الثانية صباحا، كأنهم غير معنيين بالليل والنّهار، بالنسبة لي النوم فكرة مرتبطة بالنّهار، وهذه الحركيّة التي تستعمر بيت جدّي وبيتنا معا تجعلني أشعر برغبة في النوم، رغبة كبيرة في تجاوز هذا اليوم أو الارتداد إلى أمس، هذه اللّحظة ورغم أنها جعلتني أكتشف أخي، إلاّ أنها تثقلني وترهبني، أفكّر ما الذي بوسعي فعله الآن سوى النوم أو الخروج والتجوّل بعيدا عن الحيّ، لقد كان إدريس عاشقا حقيقيا لحيّنا، لكنه لم يملك أدوات المواصلة بين مقابره الثلاث ووادية، على نحو ما لم يكن آليا، ومرتبا ورتيبا ومستسلما، لم يكن مثلهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة، لأجل هذا فقد حالته الطبيعية وحالته التي كان يأمل

فيها وانخرط في حالة لا تفسير لها سوى الجنون، ولن أصدّق أنّ الذي حصل لإدريس كان فقدان عقل، المجانين لا يكتبون ما كتبه هو، والعقلاء يحتاجون إلى كثير من الحكمة لفهمه. أردت بشدّة أن ألتهم حبّة إجاص طازجة، كان البرد الذي بالخارج يؤكّد لي أنه لا يمكنني الحصول على الفاكهة التي عشقها شقيقي، والجلبة تدفعني للصّراخ في كلّ الوجوه التي تتعاطى الحزن خارجا لتبدو أكثر قدرة على فهم الحياة أو لتكون مقبولة كوجوه حية. لن أفعل أيّ أمر من الاثنين، التقطت الأوراق جمعتها جيّدا، وضممتُها إلى صدري كأنها شقيقي، أردت أن أتعهّد بالعمل على وصيّة أخي إدريس، ولكنني لا أعرف إن كان يمكن للمعتوه أن يترك وصيّة وهو لا يملك من أمره شيئا. أخذت الأوراق التي بدت مثل كومة من الجرائد بسبب حجمها الكبير، ولففتها في شكل أنبوب، أردت أن أربطها فتعذّر عليّ الأمر، وضعتها تحت ذراعي وأخذت أسعى في غرفة إدريس للعثور على خيط أو سلك أو أيّ شريط يفي بالغرض، بدا الأمر مضحكا وأنا أصارع للحفاظ على أنبوب الأوراق أسفل كتفي وأنزل برأسي تحت سرير إدريس... ماذا كنت أرى ساعتها؟ لقد وجدت رأسي تحت سرير إدريس... كنت متفاجأ وخائفا في الوقت ذاته، تصلّبت للحظة ولم أترك الأوراق شددت أكثر عليها، كأن هذا الوجه الذي هو لي يستعدّ ليأخذها، تصوّرت أن بقائي على تلك الوضعية سيعقّد الأمر، فركّزت قليلا فيّ، تحركت قليلا إلى اليمين فغاب وجهي، اكتشفت أخيرا أنها مرآة إدريس، فبدأت أهدأ وبدأت نبضات قلبي تنتظم إلى أن اعتدلتُ وجلست على السرير، ما زلت أشدّ على أنبوب وصية إدريس بنفس القوّة، لم أتمكّن من الحصول على فكرة واضحة أو معنى لوجودي. شعرت أن لعنة ما تدور في هذه الغرفة، المرّة الأولى التي أكون فيها في الحيّ ليلا منذ زمن طويل أخافتني، فقرّرت

أن أنسحب الآن. هرولت نحو الباب، أكاد أفتحه وأعود مسرعا لأجلس في مكاني، وماذا عن المرآة؟ كان يجب أن اتخذ موقفا واضحا، إمّا أن أحصل على إرث إدريس كاملا أو أحرق هذه الكومة من الأوراق، عندما تحرّكت فكرة النار برأسي إزداد ذراعي شدّا على الأنبوب الورقي، ولم أتمكن من الغوص أكثر في الفراغ، قرّرت أن ألتقط المرآة، أخذتها من تحت السرير وأنا أقلّبها متحاشيا وجهي، الآن أستعيد الكثير من أوراق إدريس، وضعتها على فخذيّ كأنها ابن إدريس، وجلست أتظاهر بأني في وضع معتاد، كنت أمسك الأوراق بذراعي اليسرى رغم أن كلتا يديّ في حريّة تسمح بإزالة هذا العناء، يدي اليمنى تقترب دون أمر مني نحو المرآة كأنها تسعى لتسويتها، بعد أن دفعتها لمساتي المتكرّرة وتحركي المضطرب للسقوط بين فخذي، إنها لحظات عسيرة، لم أجد هذا التوتر وأنا أقرأ الأوراق المليئة بالأسرار والغرائب، لكنني الآن أصبحت مصاباً بلعنة حقيقية، لهذا فلن أصبر عليها، قلبت المرآة ونظرت إلى وجهي، أردت أن أتصور وجه إدريس وأصاب بالرعب فلم يحصل، تخلّصت من الخوف دون أي تحفيز.

الساعة تقترب من الثالثة صباحا، هدأت فوضى بيتنا مقارنة بالفوضى التي تتسرّب من بيت جدّي، الضوء أصبح مزعجا لي، قرّرت أن أطفأ النور وأستسلم للنوم. استلقيت على فراش أخي هادئا ودون أن أترك الكومة الورقية، هذه المرّة مددتها إلى جانبي فانفتحت ما جعلني أكتشف سبب إمساكي بها بكلّ قوّة، لم أربط الكومة في شكلها الأنبوبي، كانت انتفاضتها مرعبة. توقّعت أن يحصل ما يرعبني فقد هدأت كثيرا، أعدت لفّها وقبضت عليها وشعرت أن عيني تأخذني إلى حيث أريد، سوف أنام الآن دون أن تلتهمني اللعنة.

-6-

فتحت عينيّ كأنّي أخشى النوم، بالكاد غفوت وأفقت مسرعا كأني أحرس ميراث المعتوه. كانت الغرفة مضيئة رغم أني أطفأت الضوء، نور الخارج يتسرّب إلى الداخل فتتحوّل معه الجدران الثلاثة إلى مسرح بوجوه إدريس. أصبحت لوحات أخي أكثر إبهارا بتسليط نور خافت عليها. شعرت أنها لقطات مما كتب، استدرت وأنا أشدّ بقوّة أكثر على كومة الورق نحو الجدار، فانتابني شعور بأن أبطال الجدران الثلاثة يتحركون الآن، غمرني إدريس بأفكاره العجيبة، وتحوّل شوقي إليه إلى رهبة من عوالمه، تأكّد لي أنه لا ينبغي الانصياع لأفكاره، ربما يجب أن أنسى كلّ ما حصل وأبدأ من جديد، أخرج ولا أعود إلى هذه الغرفة فتكون الأوارق طعاما للنار أو منشفة تستخدمها أمي وتنتهي الحكاية ونعيش في سلام بلا جنون ولا وصايا، وهو ما حصل قبل إحدى عشر ساعة، ألم تكن لجدّي وصيّة ولم يعمل بها من أوصاهم، ما الذي حصل؟ دفنوه ولن يتمكن من محاسبتهم على خذلانه، ولا العودة لتصحيح ما جرى.

بعد أخذ وردّ سأحمل الكومة الورقية بيديّ وأتجه إلى الفناء، كان بيتنا مخصّصا للنسوة، وكنت الذّكر الذي يعطفون عليه لمصابه وفقدانه جده، لهذا فلا حرج أن أنام في غرفة شقيقي، في الفناء الذي بدأ يتحوّل إلى بركة ماء يعلوها المرق، قاومت انزلاقي وسقوطي. أحضرت الكبريت وقرّرت أن أحرق وصيّة إدريس لكي لا يحترق الحيّ بها.

الآن وأنا واقف وسط فناء البيت ممسكا بالأوراق بقبضتي اليسرى وعلبة الكبريت باليمنى، أحاول أن أجد الفكرة الأخيرة برأسي عما خلّفه أخي، أحاول أن انهي كلّ احتمالات الندم، فلا تكون لي علاقة بالأوراق بعد ذاك.

أعدت بوق الأوراق إلى تحت ذراعي لأشعل العود الأول، وفعلت بصعوبة، لكنه انطفأ، لمع وخبا. أعدت الكرّة مرة واثنين دون جدوى، كأن الثقاب مبللة، جمعت يديّ كفنجان لتحميا العود وتحفظ ناره وركّزت تماما مع ناري التي سأحرق بها الجنون وأوقد الحكمة والحياة، ويبدو أني نجحت في حفظ النار لثوانٍ، لكنني وجدت صعوبة في الوصول إلى كومة الورق اللغينة، وانطفأ العود الأول بعد أن وصل إلى إصبعيّ وكاد يحرقهما. لم يبق في العلبة إلا عود واحد يجب أن ألهب به هذه الأوراق لهذا فقد جمعت كلّ قوّتي وتقنيتي وحفّتي وذكائي وحضوري في المحرقة القادمة. أوقدت عودا بدت ناره أكبر حجما وأكثر رغبة في الانتشار داخل الأسطر الخرافية لإدريس، تعوّجت لأنجح العملية وأدرت يدي اليسرى التي تحمي العود إلى الخلف، ودفعت ظهري إلى الأمام كي يلتقي العود النهم بالأوراق المشؤومة، وحصل أمر خطير لم أستعد له، انفرطت الأوراق من تحت ذراعي وانتشر جزء منها على الأرض المبللة بالماء والمرق، وجزء بقي مبعثرا بصدري، عدت مسرعا وألقيت الأوراق التي بقيت على صدري وأنا أمسكها بيديّ وذراعيّ وصدري على السرير، وخرجت أجمع ما سقط على الأرض من أوراق. أصابني إحباط شديد، ولم أجد مبررا لكلّ هذه السلوكات التي تزيد الأمر تعقيدا، نار وورق وفاعل، هل يحتاج الأمر إلى جنون ليحصل؟

طلع النهار، وهدأت الحركة، لجأ الجميع لاغفائة قد تمكنهم من إستعادة واجب الحزن بعد أن نال منهم التعب ومنعهم عن تكثيفه بملامحهم التي تقاسمها الإرهاق والنعاس والضجر والحزن. كنت أتفحّص الأوراق التي ابتللت وأحمد الله أنها لم تصب بما يمنع قراءتها، ولست أعرف لم أخش عليها وقد كنت بصدد إتلافها منذ ساعة؟ قرّرت أن أنام فقد حان وقت خروجي من العمل ودخولي إلى فراشي؟ وجدت أن رائحة المخبزة التي

كانت تحرّضني بالاشتراك مع ضوء النهار على النوم غير موجودة، فأزحت من رأسي فكرة النوم.

أنا الآن في الشارع أتأمّل الحياة بعد جدّي وإدريس. لا يبدو أن العالم فقد الكثير، كلّ يوم يسير الركب بأحدهم نحو المقبرة، ولا يكلّف الناس أنفسهم عناء الحديث عن وصايا الراحلين. كنت أعرف وأنا أنطلقُ بخطايَ محمّلا بكتاب إدريس الغريب أن شقيقي وجدّي وكلّ أهل الحيّ الذي يحضننا بلا شعور منذ ألف عام لن يكتب لهم الخلود أو الانتشار خارج مساحة الموتى. كنت أعرف أن الحيّاة موجودة في مكان ما بلون آخر وشكل آخر وطعم آخر غير هذه الفرضية التي وضعنا أنفسنا فيها، أتساءل لمَ لمْ يقرّر السكان أن يأتوا على الحيّ يحطمون بيوته ويرحلون إلى مكان آخر؟ ويبنون بيوتا جديدة تشبه التي تبنى في مكان ما، حيث يعيش الناس قريبين من الحياة وليس التصاقا بالموتى، لأني لم أكن كائنا غريبا عن الحي فقد أصغيت إلى خطايَ وأنا أتحسّس الأوراق المربوطة تحت إبطي برباط حذائي، كانت الأوراق تتحرّك مثل أرنب صغير لا يفكّر في نهايته بقدر رغبته في الحريّة، وكانت خطايَ تؤلّف مشوارها نحو مقبرة ما؟

أمام باب مقبرة النصارى تذكّرت أن أحد المدرسين قال أننا متساوون أمام الموت، لا فضل للغني أو القويّ أو الوسيم كالسعدي أو الأقل وسامة كإدريس، قال أنه علينا أن نقرأ على باب مقبرة النصارى «هنا يلتقي الغنيّ والفقير»، لم أجد تلك العبارة على باب الحديد، فتّشت جيّدا ولم أعثر على أيّ شيء. أردت أن أكتب عبارة عند لافتة الحيّ التي تدلّل على ديار للشمس، فتكون «هنا يلتقي الموتى والأموات» فنحن سكان الحيّ أقرب إلى الموتى منا إلى الأحياء.

بدت لي المقبرة خائفة؟ هل حدث فعلا أن خشيت المقبرة في غياب حارسها؟ لست أدري إن توهّمت ذلك، لكنني قفزت إلى داخلها وكانت هناك شمس حقيقيّة تتأهب لتعرية وجهها بعد عصر من البرد، مشيت قليلا ولم أسمع غناء العصافير فتأكّدت أن المقبرة وكل عناصرها تشكو من حزن مطبق لم تعهده من قبل، لا يمكن أن يفرح الميتون فأنا خبير في الأمر. وقفت تحت سور المقبرة من جهة الوادي، تأملت مرزعة جدّي فلم تُغرئني رغبتها في البكاء أو الحزن، بدت كطفل يجهل مستقبله وحاضره ولا يذكر تاريخه لأنه لم يعشه بعد. أطلقت جسمي المنهك على جذع شجرة صنوبر هرمة، ولدى التقاء ظهري بالجذع اكتشفت أني متعب. لم أرد ذلك لكنني بكيت بشدّة. شعرت بأني وحيد جدا، افتقدت جدّي وإدريس وأمي وأبي، افتقدت الحياة، فكّرت أن أرجع إلى ذاكرتي لأعثر على علامات تسحرني وتأسرني فابتسم حنينا لما مضى، ما الذي مضى سوانا، كنا نمضي دون فرح مرجوّ وبلا تعاسة واضحة، وجود ضبابي وأعمار تتداخل وأجساد تلقى في الحفر، الحياة لم تكن موجودة إطلاقا، ولا ألوان، مفهوم لم نصل إليه يوما، أسرفت في البكاء حتى تأكّد لي أني سأمضي ما تبقى لي من عمر في البكاء، توقّفت لأصدمني فلم أصب بأية صدمة.

الساعة العاشرة صباحا، الحركة خارج أسوار مقبرة النصارى هادئة، وأنا أضع أسفل إبطي الأيسر كومة ورق بريئة، وكلمات من نار وجنون، سحبتها من الخيط، كما نفعل مع حيوان معدّ للذبح، ونشرتها أمامي، خمس وأربعون ورقة بحجم ورق الجرائد. شغلت الأوراق مساحة تكفل لي تسع خطوات بالطول وخمساً بالعرض، ففعلت، مشيت عليها طولا وعرضان وقطعتها بكل الاتجاهات، وكانت أفكارها ما تزال تسمّمني، لم تتعذّب تلك الأفكار والرؤى وتصوّرت أن رائيا آخر سيلتقطني ويحوّلني

إلى فكرته إلى أن أنتهي، ربّما يكون ذات الرائي الذي نهب حياة إدريس وتظاهر بالبراءة.

استغرق عبثي فوق كتابات شقيقي ساعةً ونصفاً، كانت الشمس خلالها تتزيّن كأنها زفّت لجدّي، وكنت ألهث كأنني كنت أعدو، جمعت الأوراق، استعدت ترتيبها بسرعة وبلا عناء، كأنها كانت تعرف اصطفافها، ولا حدث يتقدّم عن حدث، تركت الأوراق تحت شجرة الصنوبر وخرجت من المقبرة التي تلبست الحزن من يومها.

لم أجد مكانا يأوي رغبتي الملحّة في الجنون ولا قدرة على التفكير في مأوى، أعود خجلا من وجودي إلى الحيّ، أمام الباب بدأت تدّب حركة المعزين مجدّدا، مثل المرّة السابقة، معز يصبّر، وآخر يعتبر نفسه الأكثر افتقادا، وثالث بلا ملامح، ورابع لا يبادر للتعزية.. فقط يشرب فنجان قهوة ويهزّ رأسه، فلا أعرف إن كان من أهل الميت وإن كنت المعزي. أدخل إلى بيتنا، أفتح باب غرفة إدريس وأنام، أو أتخيّل كيف ينام الآخرون، أغمض عينيّ وأستعيد كلّ ما حصل، كلّ هذه الفوضى والتيه والرّجاء والعبث والسخط واليأس والمعاني المفرغة وأنا وإدريس وجدّي والآخرون؟ ما الذي نكون نعنيه إذا لم ينتبه أحد إلى عذابنا على هذه الأرض؟

ألقي بيدي أسفل السرير لأسحب مرآة أخي، لم أعثر عليها، أسحب شيئا مألوفا وأتظاهر أني لا أعرف أن ما أضعه الآن على بطني هو وصيّة المعتوه.

- بئر خادم/حيدرة.

2011.

فهرس

صاحبُ الوصيّةِ يموتُ أخيرًا 7

بين المقابر الثلاث.. وبمحاذاة الوادي 19

1- لماذا نقتلُ؟ 19

2- الكباشُ النموذجية..... 35

3- فَطيمةُ التي تُخصي السّباع 53

4- شجرة النّبق المباركة..... 68

5- في جبانة اليهود 80

6- دع عنك لومي..... 95

7- التطهير..... 104

8- مأدبة القديس 117

لا تسخر أبدا من وصيّة معتوه..... 129

إسماعيل يبرير

كاتب جزائري

ترك سليم وصيّة، لهذا سأفعل الأمر ذاته، ينبغي أن تكون لي وصية، قبل أن أفكّر في وصية سليم بن يمينة، عليّ أن أفكر في وصيتي، لمن أتركها؟ أكتبها لفطيمة الوحيدة التي بقيت منا نحن الثلاثة، فتكون خير حافظ لذكراي، أم أكتبها لوالديّ وشقيقي فيتعذبون بذكرى ابنهما المعتوه؟ هجم عليّ هاجس الوصية دون سابق إنذار، فجأة وجدتني محكوما بوصيّة بلا وجهة، فكّرت أن أجعلها وصية مفتوحة للجميع، يمكن أن يقرأها الذين أحبوني ولم يكرهوني بعد.. كأمي وأبي وشقيقي وفطيمة، والذين أحبوني ثم كرهوني.. كخالتي التاقية وعمتي كلثوم وابنتها صليحة، والذين كرهوني منذ البداية كفريد شقيق فطيمة، ووالده الحاج بورقيبة، وصالح بطاطا، ولا يمكن أن يقرأها الذي أحبني، وتوقّف عن حبي دون أن يكرهني...لا يمكن أبدا أن يقرأها السعدي.

يقول الرائي: جدّك لم يكتب لك وصيّة، ولا لغيرك، أخذك صغيرا إلى المقبرة حيث حفر له قبرا، وطلب منك أن تتذكّره إذا نسيه والدك، ولم تعد أنت إلى القبر ولا عدت تذكر أين هو، فالموتى لا يفتأون يتزايدون، ومقبرة المسلمين هي الوحيدة التي تضيق بموتاها، أنت كنت من أنصار مقبرة اليهود أو النصارى، لما فيهما من فسحة، رغم ذلك إلا أن كتابة وصيّة تبدو أكثر من غريبة، ربّما لو أنك قرّرت أن تقول حكايتك لكان الأمر مفهوما، أما الوصيّة فهي للكبار أو لمن يملك ثروة أو أبناء، أنت بالكاد كان لديك ظلّ لهذا، فأمر الوصيّة يرسّم جنونك ويجعل الجميع يتأكّدون أنّك كنت معتوها، اجعلها حكايةً.. فتمرّ بهدو

ISBN: 978-9947-863-43-5
9789947863435
Prix : 500 DA